الباب الثانى

« فأخبره بما صنع المشيب »

الفصل الثانى

المشيب

٢ – أ : حلول المشيب

إن الشاعر – مثله فى ذلك مثل سائر الناس – ليتزعج لدى رؤيته أول شعرة بيضاء تخط رأسه ، فهو يدرك أنها بداية الطريق إلى المشيب ، وأنه سوف تتبعها شعرات وشعرات . وفى ذلك يقول **ابن الرومى** (٣٧/٢٩) :

٢٥٧ أول بدء المشيب واحدةٌ تُشعِلُ ما جاورت من الشَّعَرِ
٢٥٨ مثل الحريق العظيم تبدؤه أولُ صَوْلٍ صغيرةُ الشَّرَرِ

ويقول **أبو العلاء المعرى** فى مطلع درعيته الثالثة عشرة يصف حلول المشيب بفوديه (١٨٧٨/٤/١١) :

٢٥٩ غَدَا فَوْدَايَ كالفَوْدَيْن ثِقْلاً وأضحى الشيبُ بينهما عِلاَوَهْ

ويقول **الشاعر** (٣٧٨/٨) :

٢٦٠ أصبح الشيب فى المفارق شاعا واكتسى الرأسى من البياض قناعا
٢٦١ ثم ولّى الشباب إلا قليلاً ثم يأبى القليلُ إلا نزاعا

ويقول **أبو العلاء المعرى** من قصيدة يرثى بها أمه (١٦٨٩/٤/١١ ، البيت السادس) :

٢٦٢ مَضَتْ وكأنى مُرضَعٌ وقد ارتقَتْ بِيَ السِّنُّ حتى شكلُ فودىَّ أشكالُ

ويقول **ابن دريد** (٩٩/٤٠) :

٢٦٣ أما ترى رأسى حاكى لونهُ طرة صبح تحت أذيال الدُّجى
٢٦٤ واشتعل المبيضّ فى مسوَدِّهِ مثل اشتعال النار فى جزل الغضى

ويقول المتنبى (٣٥٥/٤/٤) :

٢٦٥ تغَيَّر حالى والليالى بِحالِها وشبتُ وما شاب الزمانُ الغرانِقُ

ويقول ابن هرمة من قصيدة له (١١٥/٦/٥) :

٢٦٦ رأيت الشيبَ قد نزلت علينا روائعُه بحجة مستقيم
٢٦٧ إذا ناكرتُه ناكرت منه خصومة لا ألدّ ولا ظَلوم
٢٦٨ وودعنى الشبابُ فصرتُ منه كراضٍ بالصغير من العظيم

ويقول على بن جبلة يصف حلول المشيب ويتحسر على الشباب (٩٠/١٨) :

٢٦٩ جلال مشيب نَزَلْ وأُنسُ شبابٍ رَحَلْ
٢٧٠ طوى صاحبٌ صاحباً كذاك اختلافُ الدُّوَلْ
٢٧١ شبابٌ كأن لم يكن وشيبٌ كأن لم يَزَلْ
٢٧٢ كأن حسورَ الصِّبا عن الشيب حين اشتعل
٢٧٣ زُهاء أملٍ مونقٍ أطَلَّ عليه أجَلْ
٢٧٤ أعاذِلَتِى أقصرى كفاك المشيبُ العَذَلْ
٢٧٥ بدا بَدَلاً بالشبا بِ ليتَ الشبابَ البَدَلْ

ويقول لبيد (٤٩٥/١١٦/٢١) :

٢٧٦ إن تَرَىْ رأسىَ أمسى واضِحاً سُلِّطَ الشيبُ عليه فاشْتعل

٢ – ب : ذم المشيب

٢ – ب – ١ : سوء منظره

حينما يحل المشيب يبدى الشعراء فزعهم منه ، وكراهيتهم لمقدمه فمنظره قذى فى العين ، تعافه النفس ، وتعرض عنه الأنظار ، وهو ضيف غير مرغوب فيه يحل لامرحباً به . والأبيات التالية تحفل بذم المشيب وتعداد مساويه فيقول أبو تمام (١١٠/٧ ، ٣٧٠/٣/١٢) :

٢٧٧ غدا الشيب مختطًّا بفوْدى خُطَّةً طريق الردى منها إلى النفس مَهْيَعُ
٢٧٨ هو الزور يُجْفَى والمعاشر يُجتوَى وذو الإلف يُقلَى والجديدُ يُرَقَّعُ
٢٧٩ له منظرٌ فى العين أبيض ناصِعٌ ولكنه فى القلب أسودُ أسفعُ
٢٨٠ ونحن نرجيه على الكره والرضا وأنف الفتى من وجهه وهو أجدع !

وفى هذا المعنى يقول الشريف (٨٧/٢٩) :

٢٨١ ضوء تَشَعْشَعَ فى سوادِ ذوائبى لا أستضىء بهِ ولا أستصبح
٢٨٢ بِعْتُ الشبابَ بهِ على مِقَةٍ له بَيْعَ العليمِ بأنه لايربح

ويقول الشاعر (١١٢/٢٤) :

٢٨٣ ها قد غدا من ثياب الشعر فى كفن وقد تعفت معانى وجهه الحسن
٢٨٤ وكان يعرض عنى حين أبصره فصرتُ أعرضُ عنه حين يبصرنى !

ويقول المتنبى متمنياً لو كان بياض شعره خضاباً (٨٩/٥٧) :

٢٨٥ مُنى كنّ لى أن البياض خضاب فيخفى بتبييض القرونِ شبابُ

وقد سبق أن روينا لمنصور النمرى أبياتاً فى الفصل الأول منها هذا البيت الذى يذم فيه الشيب وقد جاء تحت رقم ٢١٠ :

ماواجه الشيبَ من عين وإن رمقت إلا لها نبوة عنه ومُرْتَدَعُ

ويبدى الشاعر الهذلى أبو كبير كراهيته لسوء منظر المشيب (١٠٠/٥٠ ، الأبيات ٢ – ٧) فيقول فى مطلع إحدى قصائده :

٢٨٦ أزهير هل عن شَيْبَةٍ من مَقْصَرِ أو لا سبيلَ إلى الشباب المُدْبِرِ؟

ويقول :

٢٨٧ فَقَد الشبابُ أبوكِ إلاّ ذكرَهُ فاعْجَبْ لذلِك فِعْلَ دَهْرٍ واهْكَرِ
٢٨٨ أزهيرُ ويْحك مالرأسى كلما فقد الشباب أتى بلونٍ مُنْكَرِ
٢٨٩ ذهبت بشاشته وأصبح واضِحاً حَرِق المفارق كالُبراء الأَعْفَرِ
٢٩٠ ونُضيت مما تعلمين فأصبحتْ نفسى إلى إخوانها كالمُقْذَرِ
٢٩١ فإذا دعانى الداعيان تأيدا وإذا أُحاول شوكتى لم أبصِرِ
٢٩٢ يالهف نفسى كان جدّة خالدٍ وبياض وجهك للتراب الأعفر !

وإن كراهية الشعراء لسوء منظر المشيب لتبلغ ببعضهم أنه يفضل أن يُقْطع رأسه بالسيف على أن يخطها المشيب ، فنسمع المتنبى يقول من قصيدة قالها فى صباه (١٧٨/٣/٣ – ١٧٩ ، ٣٧٣/٣/١٢) :

٢٩٣ ضيفٌ ألَمَّ بِرأسى غير محتشم والسيف أحسنُ فِعْلاً منه باللممِ
٢٩٤ أبْعد ، بَعِدْتَ بياضاً لابياض له لأنت أسود فى عينى من الظُّلَمِ
٢٩٥ بِحبِّ قاتلتى والشيب تغذيتى هوای طِفلاً ، وشيبى بالغ الحُلُمُ

فالمتنبى يفضل فعل السيف بالشعر على فعل الشيب به لأن الشيب أقبح ألوان الشعر ، وهذا مأخوذ من قول البحترى الذى أوردناه تحت رقم ١٣٧٣ فى الفصل الخاص بالبحترى .

ويقول **السراج الوراق** مضمناً أبياته صدر البيت الأول من أبيات المتنبى المذكورة أعلاه فيقول (٣٨١/٣/١٢) :

٢٩٦ وباخل يشنأ الأضيافَ حَلَّ به ضيفٌ من الصبغ نزال على السقم
٢٩٧ سألته ما الذى يشكو فأنشدنى « ضيفٌ ألَمَّ برأسى غير محتشم »

وإن بياض المشيب لشىء تعافه النفس ، ولكنه يصبح محبباً إذا كان البياض مما يميز أشياء أخرى يعشقها المرء ، وفى ذلك يقول **حافظ جميل** الشاعر العراق (٨٠/٣١) :

٢٩٨ يالكِ من بيضاء حبَّبت لى حتى بياض الشيب فى رأسى

ومن طريف ما جاء فى ذم منظر الشيب الأبيات ٧ – ١٣ من درعية **أبى العلاء المعرى** التاسعة والعشرين ، على لسان امرأة توصى ابنها بلبس الدرع وترك الزواج . يقول أبو العلاء (٢٠٠٢/٥/١١ – ٢٠٠٣) :

٢٩٩ فحِنَّ إلى المكارم والمعالى ولاتثقل مَطاكَ بعبء حَنَّهْ
٣٠٠ فإنى قد كبرتُ وما كعابٌ ملاثمة عجوزاً مُقْسِئَنَّهْ
٣٠١ ترى تنّومها وترى ثِغامى فنَهزاً مِنْ مُنَهْبِلةٍ مُسِنَّهْ
٣٠٢ فإن يبيضّ بالحدثان فودى فقد أغدو بفوْدٍ كالدُّجُنَّهْ
٣٠٣ إذا ما السارحاتُ نظرن فيه عجبن لما سَرْحن وما دَهَنَّهْ
٣٠٤ إذا وقعت مداريها عليه سُرِن بجنح ليل أو دُفِنَّهْ
٣٠٥ فلا تُطِع الدوالِفَ مُرْسلاتٍ فكم أُوقعن فى أرض مجنَّهْ !

٢ – ب – ٢ : المشيب محنة

ومن الشعراء من يعدّ الشيب مصيبة من المصائب التى تحل بالإنسان فيؤاخى بينه وبين الفقر أو

المرض أو الزواج الفاشل ، أو بينها جميعاً كقول **أبي المحاسن الحسن بن نوفل الحلبيّ** من أبيات كتبها إلى وزير حلب ابن الموصول المشهور بالجود (٨٧/٥٦) :

٣٠٦ ولاشكوتَ بما أشكو إليك به الفقر والشيب والتزويج والجرب

ويقول صاحب « الغصون اليانعة » فى ذلك : إن الوزير وجَّه إلى الشاعر بصداق زوجته التى أراد تطليقها ، ومايشترى به جارية ، وما ينفقه عليها ، ويعانى به الشيب بالخضاب ، والجرب بالأدوية والأغذية :

ويقول **ابن نباتة** مؤاخيا بين الشيب وفقره (٢١٤/٢/١٦) :

٣٠٧ مشيبٌ وإقتارٌ هو الشيب ثانياً ألا هكذا يأتى الشقاء المكرر !

ويقول أيضا (٢١٦/٢/١٦) :

٣٠٨ لقد أصبحتُ فى حالٍ يرقّ لمثلها الحجر !
٣٠٩ مشيبٌ وافتقار يدٍ فلا عينٌ ولا أثر

ومن الشعراء من يؤاخى بين الشيب وبين محن أخرى كالكلال ، والعرج . مثال ذلك قول **الشاعر** (٣٦٥/١١٢/٢١) :

٣١٠ أنت الذى كلفتنى رَقْىَ الدَّرَجْ على الكلال والمشيب والعَرَجْ

ومنهم من يعتبر الشيب جناية الزمان على الإنسان فيقول **الوزير المهلبى** (١٤/١١/٤) :

٣١١ رَقَّ الزمان لفاقتى ورثى لطول تحرّقى
٣١٢ وأنا لنى ما أرتجى وأجار مما أتّقى
٣١٣ فلأصفحنْ عما أتا هُ من الذنوب السُّبَّقِ
٣١٤ حتى جنايته بما فعل المشيب بمفرقى !

٢ - ب - ٣ : المشيب عيب وذنب وهمّ

ويرى **أبو العباس الزّوق** أن الشيب كله عيب ، فيقول مقارناً بين الشباب والمشيب (٦٧٩/٨/٤) :

٣١٥ قد رابنى من شيبتى ريبُ وقَلَّ غرب صبوتى الشيبُ
٣١٦ وكان ثوب الشباب أحسن ملبوساً م بهاء فأخلق الثوبُ

٣١٧ من عابنى بالمشيب قلت له : صدقت ؛ فالشيب كله عيبُ
٣١٨ طلائع الشيب كلما طلعت شُقَّ على ميّت الصِّبا جَيْبُ

ويرى **العكبرى** أن الشيب ذنب ، فنسمعه يقول (٤٦/٤/٢٦٤١) :

٣١٩ كفاك بالشيب ذنباً عند غايته وبالشباب شفيعاً أيها الرَّجُلُ

وليس الشيب عيباً أو ذنباً فحسب ، وإنما هو يقود إلى السفه ، كقول **وائلة السدوسى** (٨/٤٢٨) :

٣٢٠ رأيتُك لما شِبْتَ أدركك الذى يصيب سراة الأزد حين تشيبُ
٣٢١ سفاهة أحلام وبخل ونائل وفيك لمن عاب المزون عيوبُ

والشيب كذلك سمّ قاتل وإن كان سُمًّا غير مؤلم ، كقول **أعرابى** (٤٩/٢/٣٢٥) :

٣٢٢ أرى الشيبَ مذجاوزتُ خمسين دائباً يدبُّ دبيب الصُّبح فى غَسَقِ الظُّلَمْ
٣٢٣ هو السمُّ إلا أنه غيرُ مؤلمٍ ولم أر مثل الشيب سُمًّا بلا أَلَمْ !

وإن من الشعراء من يشتد حزنهم لحلول المشيب حتى إنهم ليكون حزناً وإشفاقاً ، فالشيب عندهم غمّ عظيم ، وهمّ مقيم ، وعبء ثقيل ، فيقول **منصور بن الفرج** (١٤/٢/٤) :

٣٢٤ يا بياضاً أذرى دموعىَ حتى عاد منها سواد عينى بياضا !

ويقول **أبو الفتح البستى** (١٦/٢/٢٣) :

٣٢٥ دع دموعى تسيل سيلاً بدارا وضلوعى يَصْلَيْن بالوجد نارَا
٣٢٦ قد أعاد الأسى نهارىَ ليلاً مذ أعاد المشيب ليلى نهارا !

ويقول **ابن المعتز** (٧/٨٤) :

٣٢٧ لا تـــدعنى لصـــــبوحٍ إن الـغـبـــوق حـبـيبى
٣٢٨ فـالـلـيـل لـون شـبـابى والصـــبح لـون مشـــيبى

غير أن من الشعراء من يرفض البكاء لحلول المشيب ، فيقول **أبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدى** (٤/١١/١٠١٨) :

٣٢٩ ولست أبكى لشيبٍ قد مُنيتُ بِهِ يبكى على الشيب من يأسى على القمر

ويرى الشعراء أن المشيب غمّ ينزل بساحة المرء ، فيفسد عليه عيشه ، فيقول **الشاعر** مستخدماً

الجناس (١١٠/٧) :

٣٣٠ سألت من الأطبة ذات يوم طبيباً عن مشيبى قال : بلغمْ

٣٣١ فقلت له على غير احتشام لقد أخطأت فيما قلت : بل غم

والمشيب بذلك يضيف إلى هموم الحياة همًّا جديداً ، وفى ذلك يقول **الشاب الظريف** (٤٤٢/٢/١٥) :

٣٣٢ حملت تسهُّدى والشيب ، هذا على رأسى وذاك على عيونى

ويقول **الشافعى** رضى الله عنه (١١٠/٧) :

٣٣٣ ولذة عيش المرء قبل مشيبه وقد فنيت نَفْسٌ تولىّ شبابُها

٣٣٤ إذا اسودّ جلدُ المرء وابيضّ شعره تكدر من أيامه مُستطابها

ويقول **ابن عبد ربه** (٣٤٢/٦/١) :

٣٣٥ أطفت شرارة لهوى ولوت بشدة عدْوى

٣٣٦ شُعَلٌ عَلَوْنَ مفارق ومضت ببهجة سروى

٣٣٧ لما سلكتُ عروضَها ذهب الزحاف بِحَزْوى

٣٣٨ يأيها الشَّادى صَهٍ ليست بساعةِ شَدْوِ

ويقول **حبيب بن أحمد الأندلسى** (٤٦٨/٥/٤) :

٣٣٩ ثلاثون من عمرى مَضَيْنَ فما الذى أؤمِّل من بَعْد الثلاثين من عُمْرى ؟

٣٤٠ أطايب أيامى مضيْنَ حميدةً سراعاً ، ولم أشعرْ بهنّ ولم أدْرِ

٣٤١ كأن شبابى والمشيب يَروعُهُ دُجَى لَيْلةٍ قد راعَها وضحُ الفجْرِ

ونجده هنا قد قرن الشباب بالليل فى سواد لمَّة صاحبه ، والمشيب بالفجر فى بياضها .

وإن المشيب ليجلب الأحزان ؛ إذ هو يبدل التشبيب بالمراثى .وفى ذلك يقول **ابن عبد ربه** (٨٥٢/٩/٤ – ٨٥٣) :

٣٤٢ طلّق اللهوَ فؤادى ثلاثاً لا ارتجاعٌ لى بَعْدَ الثَّلاَّثِ

٣٤٣ وبياضٍ فى سوادِ عِذارى بَدَّل التشبيب لى بالمراثى

والمشيب مع الهموم محنة ما بعدها محنة ، مقعد المرء عن بلوغ الأمانى فيقول **أبو فراس**

الحمدانى من قصيدة له وهو فى أسر الروم إلى ابن عمه سيف الدولة يعتب ويشكو (١٥/٢/٣٥٧ ، ٤/٢/١٠٨) :

٣٤٤ فلما مضى عصرُ الشبيبة كلُّه وفارقنى شرخُ الشباب ، فَودَّعا
٣٤٥ تطلَّبتُ بين العتب والهَجْر فُرجةً فحاولتُ أمْرًا لا يُرامُ مُمنَّعا
٣٤٦ وصرتُ إذا مارُمْتُ فى الخير لذةً تتبَّعْتها بين الهموم تتبُّعا
٣٤٧ وهأنا قد حلَّى الزمان مفارقى وتوَّجنى بالشيب تاجاً مُرصَّعا
٣٤٨ فلو أننى مُكِّنْتُ فيما أريدُهُ من العيش يوماً لم أجِدْ فىَّ مَوْضِعا

والمشيب من السوء بحيث يكون حجة للمرء وعذراً يلتمسه كقول **الشاعر** (٤٤٧/١١٢/٢١) :

٣٤٩ كيف يرجون سقاطى بعدما لَفَّعَ الرأسَ مشيبٌ وصَلَعْ

والمشيب يدفع بالفارس المغوار إلى زوايا النسيان ، وبعد أن كان يُدعى إلى الحرب أصبح لايدعى إلا إلى السلم ، وفى ذلك يقول **الشريف المرتضى** من أبيات له (٣٧٥/٣/١٢) :

٣٥٠ يقولون لا تجزع من الشيب ضلةً وأسهمه إيّاى دونهم تصمى
٣٥١ وإنى مذ أضحى عِذارى قراره أعادُ بلا سقم وأجنى بلا جرم
٣٥٢ وسيّان بعد الشيب عند حبائبى وقفن عليه أو وَقَعْنَ على رسم
٣٥٣ وقد كنتُ ممِنْ يشهد الحربَ مرةً ويُرمى بأطرافِ الرماح كما يَرْمى
٣٥٤ إلى أن علا هذا المشيب مفارقى فلم يَدْعُنى الأقوامُ إلاّ إلى السِّلم

٢ – ب – ٤ : المشيب طريق الردى

ومما يبعث على ذم المشيب وكراهيته أنه يرتبط فى وجدان الناس والموتُ ، وهم يعدّونه بداية الطريق نحو المنية ، فقد قال **محمم بن حفص** (٤٦٢/٨) : رأى إياس بن قتادة العبشمى شيبة لحيته فقال : أرى الموت يطلبنى وأرانى لا أفوته !

ويعبر الشعراء عن هذا المعنى ، فترد فى أشعارهم ألفاظ « الموت » و «المنية » و « الردى » مقرونة بالشيب ، والنماذج على ذلك كثيرة ، فيقول **الشاعر** (٩٩/٢٨) .

٣٥٥ دب المشيبُ إلى الشبا ب دبيبَ ذى خَتَل مُسارِقْ
٣٥٦ إن المشيب طليعةٌ للمَوتِ فى كُلِّ الخلائقْ

ويقول آخر (٧/١١٠) :

٣٥٧ من شاب قد مات وهو حيّ يمشى على الأرض مشىَ هالك
٣٥٨ لوكان عمر الفتى حسابًا لكان فى شيبه كذلك

ويقول ابن نباتة من قصيدة يمدح بها المؤيّد (١٥/٢/٤٥٣ - ٤٥٤) :

٣٥٩ مالى وللّهو بعد مفارق قد نفَّرتْ غربانها ببزاتها
٣٦٠ والشيبُ فى فودى يخطّ أهِلَّةً معنى المنون يلوح من نوناتها
٣٦١ سقياً لروضاتِ الشبابِ وإن جنَتْ هذى الشجونَ على قلوب جُناتِها

ويقول عبيد الله بن عبيد الله بن طاهر عن غانية تعجبت من شيبه (٧/١١٠) :

٣٦٢ تضاحكت لما رأت شيباً تلالا غرره
٣٦٣ قلت لها لا تعجبى أنبيك عندى خبره
٣٦٤ هذا غمام للردى ودمع عينى مطره

ويذكر القارئ أننا سبق أن روينا أبياتاً لأبى تمام منها البيت التالى الذى أوردناه تحت رقم ٢٧٧ :

غدا الشيب مختطًّا بفودى خطةً طريقُ الرَّدى منها إلى النفس مَهْيَعُ

وها هو ذا أبو العتاهية يصف الخطوات التى تبدأ بهجوم المشيب وتنتهى بالموت فيقول (١٥/٢/٢٢٠) :

٣٦٥ لِدوا للموت وابنُوا للخرابِ فكلُّكُم يصيرُ إلى تبابِ
٣٦٦ ألا يا موتُ لم أر منكَ بُدًّا أتيت وما تحيف وما تُحابى
٣٦٧ كأنك قد هجمت على مشيبى كما هجم المشيبُ على شبابى

ويقول أبو العتاهية (٤٩/٢/٣٢٧) :

٣٦٨ نعى لك ظلّ الشباب المشيبُ ونادتك باسم سواك الخطوبُ
٣٦٩ فكن مستعدًّا لداعى المنونِ فكلُّ الذى هو آتٍ قريبُ
٣٧٠ وقبلك داوى المريض الطبيبُ فعاشُ المريضُ ومات الطبيبُ!
٣٧١ يخاف على نفسه من يتوبُ فكيف ترى حالَ من لا يتوبُ؟

وفى علاقة المشيب بالموت ووجوب الإعداد للآخرة يقول **البديع الهمذانى** (١٠٩/٧) :

٣٧٢ يا من يعلِّلُ نفسه بالباطل ... نزل المشيبُ فرحباً بالنازلِ

٣٧٣ إن كان ساءك طالعاتُ بياضِه ... فلقد كساك بذاك ثوب الفاضل

٣٧٤ لا تبكينَّ على الشباب وفقده ... لكن على الفعل القبيح الحاصل

٣٧٥ يا غافلاً عن ساعة مقرونة ... بنوادب وصوارخٍ وثواكل

٣٧٦ قدم لنفسك قبل موتك صالحاً ... فالموت أسرع من نزول الهاطل !

ويقول **ابن الرومى** (١٩٢/١٧ – ١٩٣) :

٣٧٧ وقلتُ مسلِّماً للشيب أهلاً ... بهاد المخطئين إلى الصوابِ

٣٧٨ ألست مُبشِّرى فى كل يوم ... بِوَشْك ترحّلى إثر الشباب

٣٧٩ وأنت وإنْ فتكت بحبِّ نفسى ... وصاحبِ لذّتى دون الصحاب

٣٨٠ فقد أعتبتنى وأمتّ حقدى ... بِحثِّك خطفهُ عَجِلاً وكابى

ويرى **عدىّ بن زيد العبادى أن** الشيب نذير الشر فيقول (٣٧٨/٨) :

٣٨١ وابيضاضُ السَّوادِ من نذر الشرَّ م وهل مثله لحىٌّ نذيرُ؟

ومثل ذاك النذير يدفع الشاعر إلى البكاء ، فيقول **محمود الوراق** (٣٤٨/٢/١) :

٣٨٢ بكيتُ لقرب الأجل ... وبُعْد فواتِ الأملْ

٣٨٣ ووافِد شيب طرا ... بعقب شباب رَحَلْ

٣٨٤ شبابٌ كأن لم يكن ... وشيبٌ كأن لم يزل

٣٨٥ طواك بشيرُ البقا ... وجاء بشير الأجل

٣٨٦ طوى صاحبٌ صاحباً ... كذاك انتقالُ الدُّولْ

ويجد **ابن عبد ربه الأندلسى** فى الشيب شاهداً على المنية فيقول (٣٥١/٢/١) :

٣٨٧ أطلالُ لهوك قد أقْوتْ مغانيها ... لم يبق من عهدها إلا أثافيها

٣٨٨ هذى المفارقُ قد قامت شواهدها ... على فنائِكَ والدنيا تُزَكِّيها

٣٨٩ الشيب سِفْتجةٌ فيها مُعَنْوَنَةٌ ... لم يبق للموت إلا أن يُسَجِّيها

ولابن عبد ربه أبيات أخرى فى هذا المعنى نفسه ، فهو يقول (٣٥١/٢/١) :

٣٩٠ نجومٌ فى المفارق ما تغورُ ولا يجرى بها فَلَكٌ يدورُ
٣٩١ كأن سواد لمّته ظلامٌ أغار من المشيب عليه نورُ
٣٩٢ ألا إن القتير وعيدُ صدق لنا لو كان يرجونا القتير
٣٩٣ نذيرُ الموت أرسله إلينا فكذّبنا بما جاء النذيرُ
٣٩٤ وقلنا للنفوس لعلّ عُمْرًا يطول بنا وأطولُهُ قصير
٣٩٥ متى كذبت مواعِدَها وخانتْ فأولها وآخرها غُرور

ويقول أيضاً (٤/٩/٨٦١) :

٣٩٦ وثلاث شَيْباتٍ نَزَلْنَ بمفرق فعلمتُ أن نزولَهُنَّ رحيلى
٣٩٧ طلعت ثلاثٌ فى نزول ثلاثةٍ واشٍ ووجهُ مراقبٍ ومقيلِ
٣٩٨ فعذلنى عن صبوتى متذللاً ولقد سمعتُ بذلة المعذولِ

وقد سبق أن روينا **لابن عبد ربه** فى هذا المعنى البيت التالى فى الفصل الأول تحت رقم ١٤٢ :

أما الشباب فوُدِّعت أيامُهُ ووداعُهُنَّ مُوَكَّلٌ بِوَدَاعى

ونجد **غسانَ** خال الغدار يعدد علامات اقتراب المنية ، فيجعل بدايتها المشيب ويقول (٨/٤٨٣) :

٣٩٩ إبيَضَّ منى الرأسُ بعد سوادِ ودعا المشيب حليلتى يبعاد
٤٠٠ واستحصد القرنُ الذى أنا منهمُ وكفى بذاك علامة لحصادى !

ويعمد الشعراء فى بعض الأحيان إلى الفكاهة يخففون بها وطأة الشعور بأن الموت يجىء فى أعقاب المشيب ، فيقول القاضى **سند بن عنان** يصف لنا كيف اجتز أول شعرة بيضاء أشرقت بمفرقه ، خوفا من الحتف ، فهزأت به هذه الشعرة (٣٢/٦٥) :

٤٠١ وزائرة حَلَّتْ بمفرقى فبادرتها بالنتف خوفاً من الحتف
٤٠٢ فقالت على ضعفى استطلت ووحدتى رويدك للجيش الذى جاء من خلفى

٢ – ج : عزوف الغوانى وتعييرهن

إن أشد ما يحزن الشاعر مما يفعله المشيب هو عزوف الغوانى وصدودهن من بعد إقبال ،

وما يلقاه منهن من هزء وسخرية ، مما يجعل الشاعر يقف دائماً موقف الدفاع عن ذلك الضيف الثقيل الذى حلّ برأسه ففرق بينه وبين أحبته . ويحفل الشعر العربى بنماذج تتناول هذا كله مع تنوعات متعددة .

يقول السراج الوراق (١٢/٣/٣٨١) :

٤٠٣ وكنتُ حبيباً إلى الغانيات فألبسنى الشيبُ بُغْضَ الحبيب
٤٠٤ وكنتُ سراجاً بليل الشباب فأطفأ نورى نهار المشيبِ

ويقول عمر بن أبى ربيعة (٥/١/٢/١٦٤) :

٤٠٥ صَرَمتْ حَبْلَكَ « البغوم » وصَدَّتْ عنكَ فى غير ريبة أسماءُ
٤٠٦ والغوانى إذا رأينك كهلاً كان فيهن عن هواك التواء !

ولمحمود الوراق فى هذا المعنى أبيات جامعة ، فهو يقول (١/٢/٣٤٩) :

٤٠٧ لا تطلبَن أثراً بعَيْن فالشيبُ إحدى الميتَتَيْنْ
٤٠٨ أبدى مقابح كلِّ شَيْن ومحا محاسن كلِّ زَيْنْ
٤٠٩ فإذا رأيت الغانيا تِ رأين منك غُرابَ بَيْن
٤١٠ ولربّما نافَسْنَ فيـ ـكَ وكُنَّ طوعاً لليدين
٤١١ أيام عمّمك الشبا بُ وأنت سهل العارضَيْنْ
٤١٢ حتى إذا نزل المشيـ ـبُ وصرتَ بين عمامتَين
٤١٣ سوداء حالكة وبَيْـ ـضاء المناشِر كالثُّجَيْن
٤١٤ مزج الصدودُ وصالهنّ م فكُنَ أمْرًا بين بينْ
٤١٥ وصبرن ما صبر السَّوَا دُ على مصانعةٍ ودينْ
٤١٦ حتى إذا شمل المشيـ ـبُ فجاز قطر الحاجبين
٤١٧ فتقين شرًّا تُقْيةً وأخذن منكَ الأطيبَيْن
٤١٨ فاقِن الحيا أوسُلَّ نَفْـ ـسَكَ أو فناءَ الفرقدَيْنْ
٤١٩ ولئن أصابتكَ الخطو بُ بكلِّ مكروهٍ وشَيْنْ
٤٢٠ فلقد أمنتَ بأن يُصيـ ـبَكَ ناظِرٌ أبداً بعَيْنْ

ويمضى الشعراء فى الحديث عما فعله المشيب من عزوف الغوانى وإعراضهن ، فيقول مسلم بن

الوليد (١/٦/٢٢٩) :

٤٢١ الا أَنِفَ الكواعب عن وصالى غداة بدا لها شَيْبُ القذالِ

ويقول **علقمة بن عبده** (١/٧/١١٣) :

٤٢٢ فإن تسألونى بالنساء فإننى عليمٌ بأدواء النساء طبيبُ

٤٢٣ إذا شابَ رأسُ المرء أو قلَّ مالُهُ فليس له فى وُدِّهِنَّ نصيبُ

٤٢٤ يُردن ثراء المالِ حيث علمنه وشرخُ الشبابِ عندهن عجيب !

ومما يتفق مع قول علقمة هذا – ما روى عن بنات حرثان ذى الإصبع حين سمعهن أبوهن يتحدثن عن أمانيهن فى زوج المستقبل ، إذ قالت كبرى البنات الأربعة عمن تتمنى أن يكون زوجاً لها (٦/٢/٣٨٢) :

٤٢٥ ألا ليت زوجى من أناسٍ ذوى غِنًى حديثُ الشباب طيب الريح والعِطْرِ

ويقول **محمد بن أمية** (١/٢/٣٥٠) :

٤٢٦ – رأيْن الغوانى الشيب لاح بعارضى فأعرضْن عنى بالخدود النواضر

٤٢٧ وكنَّ إذا أبصرننى أو سمعن بى دَبَبْنَ فرقّعن الكُوى بالمحاجر

ويقول **المتنبي** من قصيدة يمدح بها المغيث بن على بن بشر العِجلى (١٥/١/١٦٠) :

٤٢٨ ومَنْ خَبَر الغوانى فالغوانى ضياءٌ فى بواطنه ظلامُ

٤٢٩ إذا كان الشباب السكر والشيبُ م همًّا فالحياة هى الحِمامُ

وفى صدودهن يقول **حبيب الطائى** (١/٢/٣٤٩)

٤٣٠ نظرتْ إلىّ بعين مَنْ لم يَعْدِل لما تمكن حبُّها من مَقْتَلى

٤٣١ لما رأت وضح المشيب بلمّتى صدّت صدودَ مجانب متحمِّل

٤٣٢ فجعلتُ أطلبُ وصلها بتلطفٍ والشيبُ يغمزها بألاّ تفعلى

وقال **بعضهم فى جارية** اسمها « الثريا » (١١/٢/٦٥٢) :

٤٣٣ ولما أن تنفَّسَ صُبحُ شيبى طوت عنى رداءَ الوَصْل طَيَّا

٤٣٤ تولت مُنيتى عنى فراراً ترى وصلى لدى الفتيات غيًّا

٤٣٥ فقلتُ هجرتِ سيدتى فقالت : وهل تبقى مع الصُّبح الثريا ؟

وقال **أعرابى** من بنى أسد (١/٧/١٥٥) :

٤٣٦ تمنيتُ لو عاد شرخُ الشباب ومَنْ ذا على الدهر يُعطَى المنى ؟
٤٣٧ وكنتُ مكيناً لدى الغانيات فلا شىء عندى لها ممكنا
٤٣٨ فأما الحسان فيأبينى وأما القباحُ فآبى أنا !

وقال **الشاعر** (٨/٤٢٩) :

٤٣٩ رأيتُ الغانيات نفرن منى نفورَ الوحْشِ من رام مفيقِ
٤٤٠ رأين تغيّرى وأردن لدْناً كغصن البان ذى الفنن الوريق

ويقول **جرير** (٣٠/٧٦) :

٤٤١ بكر العواذل باللامة بعدما قطع الخليطُ بساجرٍ ليبينا
٤٤٢ أمسيْن إذ بانَ الشبابُ صوادِفاً ليت الليالى قبل ذاك فنينا

ويقول **ابن مقبل** فى احتقار الغوانى للأشيب (٢١/١٠٣/١٥٨) :

٤٤٣ ما للغوانى إذا ما جئن تحدجنى بالطرف تحسب شيبى زادنى ضعفا

ويقول **الشاعر** وهو يزاوج بين المشيب وصدود الغوانى ، وبين الشباب ووصالهن (٢٤/١٩١) :

٤٤٤ فصبحُ الوصال دليل الشباب وصبح المشيب دليل الصدود !

ويقول **ابن الرومى** من قصيدة ينصح فيها عبيد الله بن سليمان بن وهب (٥٨/١٠٣) :

٤٤٥ فَرَّ منكَ الغزالُ يالابس الشيـ ـب فرارَ الغزالِ من صيّاده !
٤٤٦ وإذا اصطادكَ المشيبُ فطارد ت غزالاً فلست بالمصطَاده !
٤٤٧ لست عند الطرادِ من قانصيه أنت عند الطراد من طراده !

وفى هذا المعنى يقول **شرف الدين بن عبد العزيز الأنصارى** (٢٤/١٢١) :

٤٤٨ تولّى شبابى فولّى الغرام ولازم شيبى لزوم الغريم
٤٤٩ ولو لم تصدّنى بازيُّه لما صارمتنى مهاة الصريم

ويقول **مهيار الديلمى** عن صدود الغوانى بسبب المشيب (٢٢/٢٥٠) :

٤٥٠ ما أنكرت إلا البياض فَصَدّتِ وهى التى جنت المشيب هى التى
٤٥١ غراء يشغف قلبها فى نحرها وجبينها ما ساءنى فى لمّتى

ويقول **محمود سامى البارودى** (٢٢/٢٥٨) :

٤٥٢ هجرت ظلوم وهجرها صلة الأسى فمتى تجود على المتيم باللقا ؟
٤٥٣ جزعت لراعية المشيب ومادرت أن المشيب لهيب نيران الجوى
٤٥٤ ولوت بوعدك بعد طول ضمانه ومن الوعودخلابة ما تقتضى

ويقول **الأخطل** من قصيدة مدح بها عبد الملك بن مروان (٤٤/٦٥) :

٤٥٥ ياقاتل اللهُ وَصْلَ الغانيات إذا أَيْقَنَّ أنكَ ممن قد زها الكِبَرُ
٤٥٦ أعرضْنَ لما حنى قوسى مُوتِّرها وابيضَّ بعد سواد اللمّة الشَّعَرُ
٤٥٧ ما يرعوين إلى داعٍ لحاجته ولا لَهُنَّ إلى ذى شيبةٍ وَطَرُ

ويقول **عبد الله بن قيس الرقيات** فى مطلع قصيدة يرثى بها أقاربه (٤٤/٦٥) :

٤٥٨ ذهب الصِّبا وتركتَ غَيَّتَيْهْ ورأى الغوانى شيب لمّتَيْهْ
٤٥٩ وهجرننى وهجرتهُن وقد غنيت كرائمها يَطُفْنَ بِيهْ
٤٦٠ إذ لمتى سوداء ليس بها وَضَحٌ ولَم أُفجَع بإخوتيهْ

ويقول من قصيدة يمدح بها عبد الملك بن مروان (١٥/١/٦٨) :

٤٦١ لا بارك الله فى الغوانى فما يُصْبِحْنَ إلاّ لهن مُطَّلَبُ
٤٦٢ أبصرن شيباً علا الذؤابة فى الرأس م حديثاً كأنه العطب
٤٦٣ فهُنَّ ينكرن ما رأين ، ولا يُعْرَف فى لِداتى اللعب
٤٦٤ ما ضَرَّ لو غدا بحاجتنا غادٍ كريمٌ أو زائرٌ جُنُب

وينسب **لبشار بن برد** هذه الأبيات (٥٢/٦/٢٣٥) :

٤٦٥ يا مرحبا ألفاً وألفَا بالكاسرات إلىّ طَرْفَا
٤٦٦ رُجُح الروادف كالظبا ءِ تعرّضت حُوًّا ووُطفا
٤٦٧ أنكرن مركبىَ الحما رَ وكُنَّ لا يُنكرن طِرْفا
٤٦٨ وسألننى أين الشبا بُ فقلت بان وكان حِلْفا
٤٦٩ أفنى شبابى فانقضى حِلفُ النساء تبِعْنَ حِلفا
٤٧٠ أعطيتهُن مودّتى فجزينى كذباً وخُلفا

وللشريف المرتضى عدة أبيات تناول فيها عزوف الغوانى وإنكارهن المشيب ، منها قوله (١٢/٣/٣٧٦) :

٤٧١ وغرائر أنكرن شيب ذؤابتى ... والبيض منى عندهن السُّودُ
٤٧٢ يهوى الشباب وإن تقادم عهدُهُ ... ويملّ هذا الشيب وهو جديدُ
٤٧٣ لا يبعدنْ عهد الشباب ومن جوىً ... أدعو له بالقرب وهو بعيد
٤٧٤ أيام أُرمى باللحاظ وأرتمى ... وأصاد فى شرك الهوى وأصيدُ

وقوله فى هذا المعنى (١٢/٣/٣٧٦) :

٤٧٥ والغانيات لذى الشباب حبائبٌ ... وإذا المشيب دنا فَهُنَّ أعادِى !
٤٧٦ شعرٌ تبدّل لونه فتبدّلت ... فيه القلوب عداوة بودادِ !

كذلك نجد أن **ابن عبد ربه** قد أكثر من قول الشعر فى المشيب وفيما فعله ، فيقول عن عزوف الغوانى (١/٦/٢٩٥) :

٤٧٧ حالَ الزمانُ له فبُدِّلَ حالاَ ... وكسا المشيبَ مفارقاً وَقَذالاَ
٤٧٨ غنيتْ غوانى الحىَّ عنكَ وربما ... طَلَعتْ إليك أَهِلَّة وجمالا
٤٧٩ أضحَى عليكَ حَلالُهُنَّ مُحرَّماً ... ولقد يكون حرامُهُنَّ حلالاَ
٤٨٠ إن الكواعب إن رأَيْنك طاويا ... وَصْلَ الشبابِ طوينَ عينك وِصالا
٤٨١ « وإذا دَعَوْنَكَ عَمَّهُنَّ فإنه ... نَسَبٌ يزيدُكَ عِندهُنَّ خَبالاَ » !

ويقول (١/٦/٢٩٠) : [٨]

٤٨٢ يا طالبًا فى الهوى ما لا يُنالْ ... وسائلاً لم يَعفِ ذُلَّ السُّؤالْ
٤٨٣ ولَّتْ ليالى الصِّبا محمودةً ... لو أنّها رَجَعَتْ تلكَ اللَّيالْ[٩] !
٤٨٤ وأعقبتْها التى واصَلْتَها ... بالهجر لما رأتْ شيبَ القذالْ
٤٨٥ لا تلتمس وَصْلَةُ من مُخْلِفٍ ... ولا تكن طالباً ما لا يُنال
٤٨٦ يا صاح قد أخلفتْ أسماءُ ما ... كانت تمنيك من حُسْنِ الوِصَالْ

---

(٨) وردت هذه الأبيات فى يتيمة الدهر ٩/٨٤٢ مع اختلاف طفيف .

(٩) رقم هذا البيت مع أنه سبق وروده فى ١ – د (البكاء على الشباب) تحت رقم ١٢١ .

ويقول **الشريف الرضى** (٣٧٣/٣/١٢) :

٤٨٧ ضاع الشباب فقل لى أين أطلبه ؟ وازورّ عن نظرى البيض الرعاديد

٤٨٨ وجرد الشيب فى فودى أبيضه ياليته فى سواد الشعر مغمود

٤٨٩ بيض وسود برأس لا يسلطها على الذوائب إلا البيض والسود

ويتحدث الشعراء عن عبوس الغوانى إذ يرين المشيب فيقول **أبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدى** (١٠٠٨/١١/٤) :

٤٩٠ وَقَفَتْنى مابين همٍّ وبوس وَثَنَتْ بعد ضِحْكةٍ بعُبوس

٤٩١ ورأتنى مشطت عاجاً بعاج وهى الآبنوس بالآبنوس

والشاعر وهو يتحدث عن عزوف الغوانى ، يشكو تغير معاملتهن : فأحاديثه لم تعد تروق لهن أو تلق لديهن آذاناً مصغية ، وأصبحن يعجبن منه بدلاً من أن كُنَّ يعجبن به . وهذا ما يعبر عنه **ابن الرومى** حين يقول وهو يتحسر أيضاً على مضى الشباب (٤٩/٢/١٥) :

٤٩٢ أأيام لهوى هل مواضيك عُوَّدُ ؟ وهل لشباب ضَلَّ بالأمس مَنْشَدُ ؟

٤٩٣ أقول وقد شابت شواتى ، وقُوِّسَتْ قناتى ، وأضْحت كِدْنتى تتمدَّدُ

٤٩٤ ولذَّتْ أحاديثى الرجال ، وأعرضتْ سُليمى وريّا عن حديثى ومَهْدَدُ

٤٩٥ ويُدِّلَ إعجابُ الغوانى تعجُّباً فَهُنَّ روانٍ يعْتبرن وصُدَّدُ

وفى بيت صنعه **أبوعمرو بن العلاء** وأدخله فى شعر الأعشى يقول (١٥٧/٦/١، ٣٨/٢/٦)[١٠] :

٤٩٦ وأنكرتنى وما كان الذى نكِرَتْ مِنَ الحوادث إلا الشَّيبَ والصَلَعَا

ويقول **الشريف المرتضى** (٣٧٤/٣/١٢) :

٤٩٧ والشيب داءٌ لربات الحجال إذا رأينه وهو داء ماله آسى

٤٩٨ يا قربهن وشيبى فاحم رجل وبُعْدَهُنَّ وشيبى ناصع عاسى

٤٩٩ ماذا يريبك من بيضاء طالعة جاءت بحلمى وزانت بين جلاسى

والشيب **عيب** فى نظر الغوانى ، وهن لا يفتأن يعيّرن الرجال به ، فيقول **الشريف المرتضى** (٣٧٥/٣/١٢) :

---

(١٠) جاء فى العقد الفريد (١٥٧/٦) أن الذى أدخل البيت فى شعر الأعشى هو حماد الراوية .

٥٠٠ يا بياض المشيب لونك لو أنـ ـصفتَ رائيكَ حالِكٌ غريبُ
٥٠١ صَدَّ مِنْ غير أن يملّ وما أنـ ـكر شيئاً سواك على الحبيب
٥٠٢ يا مضيئا فى العين تسودّ منه كلّ يوم جوانحٌ وقلوبُ
٥٠٣ ليس لى مذ حللتَ ياشيبُ فى رأ سىَ كرهاً عند الغوانى نصيبُ
٥٠٤ رُحْـن يدعونى معيباً وينبـذْ نَ عهودى وأنت تلك العيوبُ

وفى هذا المعنى يقول **مهيار الديلمى** من أبيات له (١٢/٣/٣٧٨) :

٥٠٥ إذا لم يـرع عندكم الودادُ فسيَّان الـقرابـة والبعادُ
٥٠٦ امعترض صـدودك أمَّ سَعْـد ببعض الشَّر أم خلق وعادُ
٥٠٧ وعبت وليس غير الشيـب شيئاً إذا دله بعيب أو أكادُ
٥٠٨ وما منى البياض فتحرمينى به ذنبا ولا منك السواد

وليس الشيب فى نظر الغوانى عيباً فحسب ، وإنما هُنّ يعتبرنه ذنباً ، ويظل الشاعر يحاول أن يدفع عنه هذا الذنب ، فيقول **أبو تمام الطائى** (١١/٢/٧١٦، ١٢/٣/٣٧٠) :

٥٠٩ يانسيب الثغام ذنبك أبقى حسناتى عند الحسان ذنوبا
٥١٠ ولئن عبن ما رأين لقد أنـ ـكرن مستنكراً وعبْنَ معيبا
٥١١ لو رأى الله أن فى الشيب فضلاً جاورته الأبرار فى الخلد شيبا

ويقول **الشريف الرضى** (١٢/٣/٣٧٣) :

٥١٢ من شافعى وذنوبى عندها الكبر؟ إن المشيب لذنب ليس يغتفر
٥١٣ رأت بياضك مسودًا مطالعه ما فيه للحب لا عين ولا أثر
٥١٤ وما عليك ونفسك فيك واحدة إذا تغير فى ألوانه الشعر

ويقول **الشريف الرضى أيضاً** (١٢/٣/٣٧٣) :

٥١٥ ما لقائى من عدوى كلقائى من مشيبى
٥١٦ وبياضٌ هو عند الـ ـبيض من شر ذنوبى

ويقول **السيد محسن الأمين الحسينى العاملى** (١٢/٣/٣٨٠ - ٣٨١) :

٥١٧ أَبَعْدَ ما ابيضَّ القِذال وشابا ترجو لوصل الغانيات إيابا
٥١٨ هيهات فاتك ما طلبت وقطّعَتْ بيضُ الكواعب دونك الأسبابا

٥١٩ كانت وأوجهها إليك بواسم فاليوم يصرفن الوجوه غِضابا
٥٢٠ والشيب ذنب ماله من توبةٍ ولربما اعتذر المسيء وتابا
٥٢١ لهفى على عصر الشباب مضى ومَنْ لى بالحمامة أن تعود غرابا

ويروى للشريف المرتضى عدة أبيات فى هذا المعنى ، فهو يقول (١٢/٣/٣٧٨) :

٥٢٢ وتعجبْت للشيب وهو جناية لدلال غانية وصدّ صدوفِ
٥٢٣ وأحاطت الحسناء بى تبعاته فكأنما تفويفه تفويفى
٥٢٤ هو منزل قد بدَّلَتْهُ بغيره وهوى الفتى فى المنزل المألوف

ويقول (١٢/٣/٣٧٧) :

٥٢٥ عجبت لشيب فى عِذارىَ طالِعاً عليك وما شيب امرئ بعجيب
٥٢٦ وما كنت أخشى أن تكون جناية الـ ـمشيب برأسى فى حساب ذنوبى
٥٢٧ ولا عيب لى إلا المشيب وحبذا إذا لم يكن شيئاً سواه عيوبى

ويقول (١٢/٣/٣٧٦) :

٥٢٨ لا مرحبا بالشيب أظلم باطنى لما تجلّلنى وأشرق ظاهرى
٥٢٩ شعر أبى لى فى الحسان إصاخةً يوم العتاب إلى قبول معاذرى
٥٣٠ لا ذنب لى قبل المشيب وإننى لمؤاخذ مِنْ بعده بجرائر

ويقول متوسلاً ومدافعاً (١٢/٣/٣٧٨) :

٥٣١ ليس المشيب بذنب فلا تعدّيه ذنبا
٥٣٢ إن كنتُ بُدّلتُ لوناً فما تبدّلتُ حُبّا
٥٣٣ وكلما شاب رأسى نما غرامى وشبّا

ويقول وهو يتحسر أيضاً على الشباب (١٢/٣/٣٧٥) :

٥٣٤ وبيض لواهُنَّ المشيب عن الهوى فأنزرن من وَصْلى وأوسَعْن مِنْ هجرى
٥٣٥ وألزمنى ذنب المشيب كأنما جنته يداى عامداً لايدُ الدهر
٥٣٦ لحاكُنَّ ربىَ إنما الشيب فسحة لما فات فى شرخ الشبيبة من أمْرِ
٥٣٧ سقى الله أيام الشبيبة ريّها ورعيا لعصر بان عنى من عصرِ

٥٣٨ ليالى لا يعدو جمالى منيتى ولم ترد الحسناء نهى ولا أمْرى
٥٣٩ وإذ أنا فى حُبِّ القلوب محكم وأفئدة البيض الكواعب فى أسْرى

وليس عزوف الغوانى هو كل ما يؤلم الشاعر ، وإنما ما يؤلمه أيضاً هزؤهن وتعييرهن وشماتتهن من ذلك ما أنشده **الأصمعى** عن بعض الأعراب (٨/٤٤٦ – ٤٤٧) :

٥٤٠ ألا قالت الحسناء يومَ لقيتُها كبرت ولم تجزع من الشيب مجزعا[١١]
٥٤١ رأت ذا عصًا يمشى عليها وشيبة تقنَّعَ منها رأسه ما تقنّعا
٥٤٢ فقلتُ لها : لا تهزئى بى فقلما يسود الفتى حتى يشيب ويصلعا

وقول **الشريف المرتضى** (١٢/٣/٣٧٧) :

٥٤٣ تقول لى ودموع العين واكفة خريدة كرهت فقد الشبيبة لى
٥٤٤ بُرد الشباب ببرد الشيب تجعله مستبدلاً بشما عوّضت من بَدَلِ
٥٤٥ شمَّر ثيابك من لهوٍ ومن أشر وعُد وراءك عن وجدٍ وعن غزل

وقول **عبد الله بن قيس** (٨/٣٥٠) :

٥٤٦ بكرت عَلىَّ عواذلى يلحينى وألومُهُنَّهْ
٥٤٧ ويقلن شيب قد علا كَ وقد كبرت فقلت إنَّهْ[١٢]

وفى هذا المعنى يقول **ابن عبد ربه** (٤/٨/٧١٣) :

٥٤٨ بكرتْ علىَّ عواذلى تلحْيَنَنى وعلى الذى لم يعدنى أعْدَيْنَنى
٥٤٩ أيُّها عليكِ ، فقد كبرتُ عن الصِّبا ونهى المشيبُ عن الذى تنهينى
٥٥٠ أنىَّ وكيف رأين تغيُّرى عن عَهْدِهِنَّ إذا العيون رأينى
٥٥١ وعلى مفارقة الشباب شَمتن بى وعلى معاداة الصِّبا عادينى

---

(١١) وردت الأبيات فى خزانة الأدب ٢/٨٩ – ٩٠ على النحو التالى :

ألا قالت الحسناء يوم لقيتها أراك حديثا ناعم البال أفرَعا
فقلت لها : لا تنكرينى فقلما يسود الفتى حتى يشيب ويصلعا

(١٢) جاء شرح ذلك فى مختار الصحاح (٢٣ /٣) على النحو التالى : أى أنه كما تقلن . قال أبو عبيد : وهذا اختصار من كلام العرب يكتفى منه بالضمير لأنه من علم معناه .

وعن هزء الغوانى بالأشيب يقول **عبد الرحيم الزلالى** (٤٦١/٥/٤) :

٥٥٢ ضحكت أسماءُ من ذى لمّةٍ ضاحكَ الأشيبُ فيه الأشيبا
٥٥٣ إنما يعرف أيام الصِّبا من صبا فى غير أيام الصِّبا

ويقول **السّرى الرفّاء** مشبها بياض الشعر بالعاج وسواده بالأبنوس (١٠٠٨/١١/٤) :

٥٥٤ رأت شيباً يضاحكها ، فصَدَّتْ وكان جزاؤه منها العُبوسا
٥٥٥ وقالت إذ رأتْ للمُشط فيهِ سواداً لا يشاكِلهُ نفيسا
٥٥٦ تلق العاج منك بمشط عاجٍ ودَعْ للآبنوس الآبنوسا

ومثل ذلك قول **الصاحب** (١٠٠٨/١١/٤) :

٥٥٧ هاتِ مشطاً إلى وليّك عاجاً فهو أدنى إلى مشيب الرءوس
٥٥٨ وإذا ما مشطتُ عاجاً بعاجٍ فامْشطِ الآبنوس بالآبنوس

ويقول **بعضهم** وهو يكيل للمستهزئة الصاع صاعين (٣٨١/٣/١٢) :

٥٥٩ قالت وقد راعها مشيبى كنتَ ابن عمٍّ فصرتَ عَمَّا
٥٦٠ فقلت هذا وأنتِ أيضاً قد كنتِ بتاً فصرتِ أمَّا

ولا يفتأ الشعراء يدخلون فى جدل وحوار مع الغوانى حين يجدون إعراضهن بعد حلول المشيب ، وهم فى هذا يقفون موقف الدفاع عن المشيب فنسمع **أبا العلاء المعرى** يقول (٦٥٢/٢/١١ ، الأبيات ٢ – ٤) :

٥٦١ هى قالت لما رأت شيب رأسى وأرادت تنكراً وازورارا
٥٦٢ أنا بدرٌ وقد بدا الصبح فى رأ سك والصبح يطرد الأقمارا
٥٦٣ لست بدراً وإنما أنتِ شمسٌ لاتُرى فى الدجى وتبدو نهاراً !

كذلك يقول **الشاعر** (٣٤٩/٢/١) :

٥٦٤ صَدَّتْ أمامة لما جئتُ زائرها عنى بمطروفة إنسانها عَرِقُ
٥٦٥ وراعها الشيبُ فى رأسى فقلت لها كذاكَ يصفرُّ بعد الخضرةِ الورقُ

ويقول **أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم بن أحمد** ولد ابن طباطبا (٦٥٣/٧/٤) :

٥٦٦ صَدَّفَتْ عنّا نُوارُ ولقد كانت تزورُ

٥٦٧ ثم قالت : كيف أودَى ذلك الغصنُ النَّضيرُ ؟
٥٦٨ وشباب يتلالا فيه للناظر نورُ
٥٦٩ قلتُ : إن أنصفتِ هذا لابن خمسين كثيرُ

ويقول **الشريف المرتضى** من قصيدة له ، وفيها أيضاً يذم الشباب ويستهجن الخضاب (٣٧٤/٣/١٢) :

٥٧٠ يا هند إن أنكرت لونَ ذوائبي فكما عهدت خلائقي وطرائقي
٥٧١ ووراء ما شنأته عينك خلة ما شئت من خلقٍ يسرّك رائق
٥٧٢ ومعيِّرى شيبَ العِذار وما درى أن الشباب مطية للفاسق
٥٧٣ ويقول لو غيّرت منه لونه هيهات أُبدل مؤمناً . بمنافق !

ونسمع **مهيار الديلمى** يقول (٣٧٩/٣/١٢) :

٥٧٤ عذولك فىّ فعيِّروكَ سريرةً ورأيت شيباً فاستحلت عيانا
٥٧٥ عذل يرى عدلاً وجور ذوائب سموه لى عِزاً فجرّ هوانا
٥٧٦ ما غيرت بالشيب لوناً لمتّى حتى تغيّر صاحبى ألوانا
٥٧٧ بيضاء سوّدت الصحيفة عنده واستعجلته بوصلها الهجرانا
٥٧٨ إن يجتنب منها الهشيم مصوحاً فبما اجتنى ريعانها ريحانا

ويقول **المرار بن منقذ**(١٤٨/٢٢) :

٥٧٩ عجبٌ خولة إذ تنكرنى أم رأت خولة شيخاً قد كَبِرْ
٥٨٠ إن ترى شيئاً فإنى ماجد ذو بلاء حسن غير غُمُرْ

ويقول **أبو العلاء المعرى** فى درعيته الخامسة عشرة (١٩٠٨/٥/١١) :

٥٨١ يا أخت نَضْلة هل يسوءك أننا بات المطىّ بنا إليك يسُوكُ
٥٨٢ مَسِّى البياضَ لعل شرخاً عائدٌ أو عَلَّ نَشْرك بالمشيب يصوك

ويرد **العلوى** على من عيرته بالمشيب قائلاً (٣٥٠/٢/١) :

٥٨٣ عيّرتنى شيْب رأسى نَوارُ يابنة العمِّ ليس فى الشيب عارُ
٥٨٤ إنما العار فى الفرار من الزَّحْـ ـف إذا قيل أين أين الفرار؟

كذلك يرد ابن سعيد أبو الحسن على بن موسى الأندلسى قائلاً (٥٤/٥٥) :

٥٨٥ وقائلة أراكَ على التَّصابى وغصنُ العُمْرِ دَبَّ به الذبولُ
٥٨٦ وهذا الشيب أنجمه أنارت وطالعها لصاحبها أفول
٥٨٧ فقلت لها ودمعُ العين منى : على تلك النجوم له مسيل
٥٨٨ أصيلُ العمر أتركه ضياعاً إذِ الأوقاتُ أطيبها الأصيل

ومن الشعراء من لا يبعث المشيب اليأس فى نفسه ، فنسمع جريراً يقول من قصيدته التى يمدح بها عبد الملك بن مروان (١٠٥/٢/١٥ ، البيت الثانى) :

٥٨٩ تقولُ العاذلاتُ علاكَ شيبٌ ! أهذا الشيب يمنعنى مراحى ؟

غير أن الشريف المرتضى حين سئل نقض بيت جرير هذا قال (٣٧٦/٣/١٢) :

٥٩٠ وما مرح الفتى تزورُّ عنه خدودُ البيض بالحدق الملاح
٥٩١ ويصبح بين إعراض مبين بلا سبب وهجران صراح
٥٩٢ وقالوا : لا جناح فقلت : كلاَّ مشيبى وحده فيكم جناح
٥٩٣ سقى الله الشباب الغضَّ راحاً عتيقا أو زلالاً مثل راح
٥٩٤ ليالى ليس لى خلق معيب فلا جَدَّى يُذَمُّ ولا مزاحى
٥٩٥ وإذْ أنا من بطالات التصابى ونشوات الغوانى غير صاحى
٥٩٦ وإذْ أسماعهن إلى ميل يصخْن إلى اختيارى واقتراحى

٢ – د : الدفاع عن المشيب .

ويواجه الشاعر حلول المشيب وعزوف الغوانى وتعييرهن باتخاذ موقف يدافع فيه عن المشيب ، فنجده يبرز محاسنه ويعددها ، ويحاول أن يثبت حتمية المشيب بالنسبة للبشر . وحين يخشى أن تكون حجته داحضة عندهن نجده يحاول أن يدلل على أن هذا الشيب الذى يُعيَّر به إنما هو شيب مبكر قد جاء فى غير أونه ، ويعدد الأسباب التى أدّت إليه .

٢ – د – ١ : تحسين المشيب .

نبدأ بقول الشريف الرضى وهو يحاول أن ينصف كلاً من الشباب والمشيب (٢٨/٢/١٦) :

٥٩٧ وماكُلّ أيام المشيب مريرة ولاكُلُّ أيام الشباب عِذابُ
٥٩٨ أؤمل مالا يبلغ العمر بعضه كأن الذى بعد المشيب شباب

وفى الأبيات التالية يشبه **أبو العلاء المعرى** الشباب بثلاثة أشياء والمشيب أيضاً بثلاثة ، فيقول مفاضلاً بين الشباب والمشيب (٢٠٣٣/٥/١١) :

٥٩٩ خبِّرينى ماذا كرهت منَ الشيـ ـب فلا علم لى بذنب المشيبِ
٦٠٠ أضياءُ النهار أم وَضَح اللوْ لؤ أم كونَهُ كثغرِ الحبيب
٦٠١ واذكرى لى فَضْلَ الشباب ومايجْـ ـمَعُ مِنْ منظرٍ يروقُ وطيبِ
٦٠٢ غَدْرُهُ بالخليلِ أم حُبُّهُ لِلْـ ـغىِّ أم أنه كدهرِ الأديبِ

وفى دفاعه عن المشيب يرى الشاعر أنه لا يجرد المرء من مواهبه وفضائله ، وفى ذلك يقول **أبو الفتح البستى** (٩٦/٢٤) :

٦٠٣ أبـا العبـاس لا تحسب بأنى لشيبـى من حلى الأشعار عارى

ويقول **السيد محمد الأمين الحسينى العاملى** (٣٨٠/٣/١٢) :

٦٠٤ باتت تعيِّرنى بالشيب حين بدا فقلت هيهات ما بالشيب من عار
٦٠٥ ما شاب حلمى ولا عزمى ولا نقصت يا مىّ بالشيـب لذاتى وأوطـارى

والمشيب لا يحول بين المرء وبين التمتع بالحياة ، فيقول **الشاعر** (٣٥٦/٢/١) :

٦٠٦ يقولون هل بَعْدَ الثلاثين مَلْعَبُ ؟ فقلتُ وهل قبل الثلاثين ملعب ؟
٦٠٧ لقد جَلَّ قدْرُ الشيب إن كان كلما بدت شيبةٌ يَعْرَى من اللهو مَرْكَبُ[١٣]

ويرى **محمود الوراق** أن الشيب نعمة ، لأنه يأتى مع طول العمر ، ومن ثم فإن من يعيب الشيب يستوجب الدعاء عليه بألا يبلغه ، فيقول (٣٥٧/٢/١) :

٦٠٨ وعائب عابنـى بشيـبٍ لم يَعْـدُ لمّا أَلَمَّ وَقْتَـهْ[١٤]
٦٠٩ فقلـت للعائبـى بشيبـى يا عائـب الشيب لا بلغْتَهْ

ويرى **طريح بن إسماعيل الثقفى** أن الشيب يضفى على المرء جمالاً فيقول (١٠٨/٧) :

٦١٠ والشيب إن يحلل فإن وراءه عمراً يكون خلاله متنفسُ
٦١١ لم ينتقص منى المشيب قلامة ولنحن حين بدا ألذّ وأكيَسُ

---

(١٣) جاء فى العقد الفريد ٦ /١٨٤ لفظ « غَرَى » بدلا من « يعرى » .

(١٤) ورد عجز البيت الأول مختلفا فى العقد الفريد ٦ /١٨٤ على النحو التالى « لم يأن لما أبان وقته » كما ورد صدر البيت الثانى هكذا : « فقلت إذ عابنى بشيبى » .

ونجد **مالك بن خريم**[١٥] يعدد مساوى أربعةً جعله المشيب ينأى عنها ويحجم عن اقترافها فيقول (٣٨/٢/١٤) :

٦١٢ فإن يك شاب الرأس منى فإننى أبيت على نفسى مناقب أربعا
٦١٣ فواحدة ألا أبيت بغرة إذا ما سوام الحىِّ حولى تضوعا
٦١٤ وثانية ألا تُفزَّعَ جارتى إذا كان جار القوم فيهم مُفزَّعا
٦١٥ وثالثة ألا أصَمَّت كلبنا إذا نزل الأضياف حِرصًا لنودعا
٦١٦ ورابعة ألاّ أحجل قِدرنا على لحمها حين الشتاء لنشبعا

والشيب سمة العفيف ، فيقول **دعبل الخزاعى** (١٠٨/٧) :

٦١٧ أهلاً وسهلاً بالمشيب فإنه سمة العفيف وهيئة المتحرج
٦١٨ وكأن شيبى نظمُ درٍّ زاهرٍ فى تاج ذى ملك أغر متوج

ونراه يرحب بالشيب ضيفاً فيقول (١٠٨/٧) :

٦١٩ أحب الشيب لما قيل ضيفٌ كحبِّى للضيوف النازلينا[١٦]

ومع الشيب يأتى الحزم وصواب الرأى ، كقول **كثير عزة** يمدح عبد الملك بن مروان (٥٩٠/٨) :

٦٢٠ رأيت أبا الوليد غداة جمع به شيب وقد فقد الشبابا
٦٢١ ولكنْ تحت ذاك الشيب حزم إذا ما ظن أمرض أو أصابا[١٧]

وقول **أبى الفتح البستى** (١١١/٣/٤٥) :

٦٢٢ ما استقامت قناة رأيى إلا بعد أن عوّج المشيبُ قناتى

والشيب يلبس المرء ثوب النهى والتعقل ، فيقول **ابن عبد ربه** (٣٥٠/٢/١ ، ٨٣٢/٩/٤ – ٨٣٣) :

---

(١٥) وقيل « حزيم » بالحاء المهملة والزاى .

(١٦) قارن بين هذه النظرة إلى المشيب وبين ذم المشيب باعتباره ضيفاً غير مرغوب فيه ، وذلك فى أبيات كل من المتنبى والسراج الوراق التى وردت فى ٢ – ب – ١.

(١٧) جاء لفظ « قال » بدلا من « ظن » فى شروح سقط الزند ١ /٢٤٤ .

٦٢٣ بدا وَضَحُ المشيب على عِذارى وهل ليلٌ يكون بلا نهارِ؟
٦٢٤ شَرَيْتُ سوادَ ذا ببياض هذا فَبَدَّلْتُ العمامة بالخمار
٦٢٥ وألبسنى النهى ثوباً جديداً وجرَّدنى من الثوب المُعار
٦٢٦ وما بعت الهوى بيعاً بِشَرطٍ ولا استثنيتُ فيه بالخيار

كذلك فالمشيب يلبس المرء ثوب الفاضل ، كهذا البيت الذى رويناه تحت رقم ٣٧٣ ضمن أبيات أخرى **للبديع الهمذانى** :

٠٠٠ إن كان ساءك طالعاتُ بياضه فلقد كساكَ بذاكَ ثوب الفاضِل

وفى هذا المعنى يقول **أبو السميط** (١٠٨/٧) :

٦٢٧ إن المشيب رداء العقل والأدب كما الشباب رداء اللهو والطرب

ويقول **أبو تمام** (٣٧١/٣/١٢) :

٦٢٨ ست وعشرون تدعونى فأتبعها إلى المشيب ولم تظلم ولم تحب
٦٢٩ فلا يروعْنك إيماض القتيربه فإن ذاك ابتسام الرأى والأدب[١٨]

والمشيب يكسب المرء حُنْكَة وتجربة ، فالمرء كلما زادت أيامه ، وعلت سنه كثرت تجاربه وأصبح محنكا . ويصف **أبو العلاء المعرى** فرسانا بأنهم شيبٌ محنكون قد مارسوا الحروب ، وليسوا بشباب أغمار لا دُربة لهم بالحرب ، وذلك من قصيدة قالها وهو محتجب بمعرة النعمان ، يخاطب بها خازن دار العلم ببغداد (١٦٣٧/٤/١١ – ١٦٣٨ ، البيت ٣٤) :

٦٣٠ فوارسُ طَعانون مازال للقنا مع الشيب يوماً فى عوارضهمْ وَخْطُ

وفى ذلك يقول **الراجز** (١٦٣٨/٤٠/١١) :

٦٣١ يمنعها شيخٌ بخدّيه الشيبُ لايحذر الرّيب إذا خيف الريبُ

وهذا المعنى أراده **أبو الطيب** بقوله (١٦٣٨/٤/١١) :

٦٣٢ سأطلب حقى بالقنا ومشايخٍ كأنهم من طول ما التثموا مُرْدُ

وعن الحُنكة التى تأتى مع المشيب ما أنشده **الجاحظ** لامرأة (٢٠٣/١٠٣/٢١) :

---

(١٨) جاء لفظ « المشيب » بدلا من « القتير » فى اللطائف والظرائف / ١٠٨ .

٦٣٣ وهبتـه مـن سَلَفَـع أفوكٍ ومن هِبَلٍّ قـد عسا حنيكِ
٦٣٤ أشهب ذى رأسٍ كرأسِ الدّيكِ

والمشيب فى الإسلام خير المشيب ، كقول **سراج الدين الوراق المصرى** (٤٤٢/٢/١٥) :

٦٣٥ إلهى قد جاوزتُ سبعين حجةً فشكراً لنعماك التى لا تُكَفَّرُ
٦٣٦ وعُمِّرتُ فى الإسلام فازددت بهجةً ونوراً لذا قالوا : السّراج المعمر
٦٣٧ وعَمَّ نور الشيب رأسى فسرّنى وما ساءنى أن السراج مُنَوَّرُ

وإن كان المشيب لا يعيب الرجل فهو كذلك لا يعيب المرأة ، ولا يحول دون حب الرجل لها ، كقول **أعرابى** فى عجوز (١٨٤/٦/١) :

٦٣٨ أبى القلبُ إلاّ أم عمرو وحبَّها عجوزاً ومن يحبب عجوزاً يفنَّدِ
٦٣٩ كبُرْدِ يمانٍ قد تقادم عهدُه ورُقْعته ماشيب فى العين واليد

والمشيب يكسب المرء وقاراً ، فيقول **الشاعر** (٣٢٥/٢/٤٩) :

٦٤٠ وكان الشباب الغضُّ لى فيه لذة فوقّرنى عنه المشيب وأدَّبا
٦٤١ فَسَقْيًا وَرَعْيًا للشبابِ الذى مضى وأهلاً وسهلاً بالمشيب ومرحبا

ويقول **أبو فراس الحمدانى** من قصيدة له (٧٠/١/٤) :

٦٤٢ وما استمتعت مِنْ داعى التَّصابى إلى أن جاءنى داعى الوقار

وقد ينسى الشاعر شيبه ووقاره حين يلاعب أولاده ، كقول **محمود غنيم** (٢٣٦/٢٤) :

٦٤٣ وأطيـب ساع الحيـاة لديّـا عشية أخلـو إلى ولديّـا
٦٤٤ فأنسى عِذارى وأنسـى وقـارى وأحسبُ أنى عُدتُ صبيـا

وقد يجد الشاعر أن وقار المشيب مفروض عليه فرضاً ، كقول **على بن جبلة** فى مطلع قصيدة يمدح بها أبا دلف العجلىّ (٦٥/١٨) :

٦٤٥ ذَادَ وِرْدَ الغىِّ عـن صَـدَرِهْ وارعـوى واللهو مـن وَطَرِهْ
٦٤٦ وأبـت إلا الوقـار له ضحكات الشيـب فى شعرهْ
٦٤٧ ندمـى أن الشبـاب مضى لم أُبلِّغـهُ مَدَى أَشَـرِه
٦٤٨ وانقضـت أيامـه سلمـاً لم أهجْ حـرباً على غِيَره

٦٤٩ حسرت عنى بشاشتهُ وذَوَى اليانع من ثمره[١٩]
٦٥٠ وصغت أذنى لزاجرها ولما تشجى لمزدجرهْ
٦٥١ إذ يدى تعصى بقوتها لا ترى ثأرًا لِمُثْئِرَهْ
٦٥٢ والصِّبا سَرْحٌ أطيفُ بِهِ فأصيبُ الأُنْس من نفرِهْ

وهذا الجلال الذى يحيط بالمشيب يجده **على بن جبلة** مسئولاً عن عزوف الغوانى (١٨/٩٠) وهذا البيت هو الثامن من أبيات أوردناها تحت أرقام ٢٦٩–٢٧٥) :

٦٥٣ جلال ولكنه تحاماه حور المُقلّ

وهذا الجلال يرفضه أيضاً **أبو تمام** فيقول (١٢/٣/٣٧٠) :

٦٥٤ شُعْلةٌ فى المفارق استودعتنى فى صميم الفؤاد ثكلاً صميما
٦٥٥ دقة فى الحياة تدعى جلالاً مثلما سُمِّىَ اللديغُ سليما

كذلك يرفض **يوسف بن حمويه** الوقار الذى يأتى به المشيب فيقول (٤٠/٧٠) :

٦٥٦ ووقارى إذا توقر ذو الشيـ ـبة وَسْطَ النَّدى تركُ الوقارِ

وفى مجون يعترف **أبو نواس** بأن شيبه ليس وقاراً فيقول (١/٢/٣٥٦) :

٦٥٧ يقولون فى الشيب الوقار لأهْلِهِ وشيبى بحمد الله غيرُ وقار !

ولما كان الصلع هو البديل للشيب من حيث حلوله بعد ذهاب الشباب ، أو أنه يأتى مصاحباً للمشيب (أنظر رقمى ٣٥ ، ٣٤٩) – فإن الشاعر يدافع عنه كما يدافع عن المشيب (انظر ٧٨٤ – ٧٨٧) قائلاً إنه كالمشيب : يعد شرفاً ، ويضفى على المرء جلالاً ؛ ولكن كما يرفض بعض الشعراء الجلال الذى يأتى به المشيب (انظر الأبيات رقم ٦٥٣ – ٦٥٥)–فإنهم يرفضون أيضاً ذلك الشرف الذى يمنحهم إياه الصلع . ونسمع **أسعد رستم** الشاعر المهجرى يقول وقد أعجبته صلعة أحد أصدقائه ، فنظم فيها قصيدة بعنوان « الصلعة أو الطاسة المبصبصة » (٤٨/٣٣١ – ٣٣٢) :

٦٥٨ لصديقنا فى رأسه صحراءُ جَفَّتْ فلا عشبٌ بها أو ماءُ
٦٥٩ وكأنها الميدان من بعد الوغى فنِى الجميع فما به أحياء

(١٩) ورد فى الأغانى ٨/٢٥٤ لفظ « المحمود » بدلا من « اليانع » .

٦٦٠ تزداد ما مَرَّ الزمانُ مساحةً وصديقنا من كبرها يستاءُ
٦٦١ ولقد سمعناه يقول ودمعهُ يجرى فيعمى مقلتيه بكاءُ :
٦٦٢ كم من دوًا للشعر قد جرَّبْتُهُ يوماً فراح سُدًى وظَلَّ الداءُ !
٦٦٣ يا حسرتى ! ذَهَبَ الشباب وكان لى فيه مآثرُ جمةٌ غرَّاءُ
٦٦٤ أما الحسان الفاتناتُ فليس لى مع صلعتى فى وَصْلهنَّ رجاء
٦٦٥ قلنا له : مهلاً ، فلِمْ هذا البكا واسمع فنى هذا الكلام عزاء :
٦٦٦ أوليس للإنسان فى إحرازها شرف ، ويملك مثلها العلماء ؟
٦٦٧ فأجاب : لا شرفٌ أريدُ ولا عُلاً أفما لديكم غير ذاك دواء ؟

ويقول **محمد بن مناذر** يفاضل بين الشباب والمشيب فيمتدح المشيب لأنه وازع ، ويذم الشباب (١/٢/٣٥٧) :

٦٦٨ لاسلام على الشباب ولا حيَّـ ـا الإله الشباب من مَعْهودِ
٦٦٩ قد لبستُ الجديدَ من كل شىء فوجدت الشباب شرَّ جديد
٦٧٠ صاحِبٌ مايزال يدعو إلى الغيب م وما مَنْ دعا له برشيد
٦٧١ ولنعم المنيب والوازع الشيب م ونعم المفاد للمستفيد

ويقول **الشاعر** (٢/٢/١٩١) :

٦٧٢ ذا ارعواء فليس بعد اشتعال الرأس م شيباً إلى الصِّبا من سبيلِ

ويقول **ابن المعتز** وهو من حسن ابتداءاته (١٣/٢٧١ ، ١٦/١/١٩٤) :

٦٧٣ أخذت من شبابى الأيامُ وتولى الصِّبا عليه السلامُ
٦٧٤ وارعوى باطلى فبانَ حديث النفس م منى وعفت الأحلام

وفى هذا المعنى يقول **ابن عبد ربه** (١/٢/٣٥٢ - ٣٥٣) :

٦٧٥ وَلَّى الشبابُ وكنت تسكُن ظِلَّهُ فانظر لنفسك أىَّ ظِلٍّ تسكُنُ
٦٧٦ ونهى المشيبُ عن الصِّبا لو أنَّهُ يُدلى بحجّته إلى مَنْ يلْقن

ويقول **جعفر بن جرار** كاتب ابن طولون من قصيدة طويلة له (١/٦/١٩٥) :

٦٧٧ لو كنْت مِمَّنْ لكنتُ مِمَّا لكننى قد كبِرتُ مِمَّا . .
٦٧٨ . . . عاتبنى الدهرُ فى عِذارِى بأحرفٍ فارعويتُ لمَّا

٦٧٩ قُوِّسَ ما كان مستقيماً وابيض ما كان مُدْلهمَّا
٦٨٠ وكيف تصبو الدُّمَى إلى من كان أخا ثم صار عمّا
٦٨١ لى عنكِ يا أخت أهْلِ يمٍّ شُغْلٌ بما قد دنا وحُمَّا

ويقول عدى بن الرقاع (٩/٧١) :

٦٨٢ لولا الحياءُ وأنَّ رأسى قد عَفا فيه المشيب لزرتُ أُمَّ القاسِمِ
٦٨٣ وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحورُ من جآذِرِ عاسِمِ

ويقول راشد بن عبيد الله (١/٦/١٣٧) :

٦٨٤ صحا القلبُ عن سَلْمى وأَقْصَرَ شأْوُهُ وَرَدَّتْ عليه ما بَغَتْهُ تماضرُ
٦٨٥ وحَكَّمَهُ شيبُ القذالِ عن الصِّبا وللشَّيبُ عن بعضِ الغواية زاجرُ
٦٨٦ فأقصر جهلى اليوم وارتدّ باطِلى عن اللّهوِ لما ابيضَّ مِنِّى الغدائرُ

ويقول الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد (٤/٩/٧٦٩) :

٦٨٧ قد تركنا الصِّبا لكلِّ غَوِىٍّ وانسلخنا من كُلِّ ذامٍّ وعابِ
٦٨٨ وانقطعنا لواعِظاتِ مشيب آذنتنا حياتُها بذهابِ
٦٨٩ وإذا ما الصِّبا تَحَمل عنا فقبيحٌ بنا ارتضاءُ التَّصابى

ويقول ابن المعتز (١٥/١/١٢٢) :

٦٩٠ أعاذلُ قد كبرتُ على العتاب وقد ضحك المشيب على الشبابِ
٦٩١ رددتُ إلى التقى نفسى فَقَرَّتْ كما رُدَّ الحُسام إلى القِراب

ويقول إبراهيم بن العباس الصولى (٤٢/٢٦٠) .

٦٩٢ إنَّ الزمان وما ترين بمفرقى صرف الغواية فانصرفت كريما
٩٩٣ وضجرتُ إلاّ من لقاءِ مُحَدِّثٍ حسن الحديث يزيدنى تعلما

ويقول ابن نباتة المصرى (١٦/٢/٢١٤) :

٦٩٤ فقدتُ الهوى لما فقدت شبيبتى وأوجعُ مفقودٍ هوى وشبابُ
٦٩٥ وكان يصيدُ الظبىَ فاحِمُ لمّتى وأغرب ما صاد الظباء غراب
٦٩٦ ولوكنتُ من أهْلِ المداجاة فى الهوى لكان بدمعى للمشيب خِضابُ

ويجد سحيم عبد بنى الحسحاس فى الإسلام ناهياً وزاجرًا ، وذلك بالإضافة إلى الشيب ، فيقول (٣/٢/٨٨) :

٦٩٧ عُمَيْرَةَ وَدِّعْ إن تجهّزْتَ غادِيَا كفا الشيبُ والإسلامُ للمرء ناهيا

ويرى ابن الرومى أن هذا الارعواء إنما يُكره الشاعر عليه كرهاً فيقول (١٧/١٩٠) :

٦٩٨ كفى بالشيب من ناهٍ مُطاع على كُرْهٍ ومن داعٍ مُجاب

٦٩٩ حططتُ إلى النُّهى رحلى وكلَّتْ مطيّةُ باطلى بَعْد الهُباب

ومن الشعراء من يحض على وجوب الارعواء والتزام الوقار بعد المشيب ، وذلك من حيث المظهر والسلوك ، فيقول الشاعر (٢١/١٠٨/٢٨٩) :

٧٠٠ يالابس الوشى على شيْبه ما أقبح الدّاحَ على الشيخ !

ويقول آخر (٢٩/٢١٥) :

٧٠١ بالله قُل لى يا فُلا نُ ولى أقول ولى أسائِلْ

٧٠٢ أتريد فى السبعين ما قد كنت فى العشرين فاعِلْ ؟

ويقول ابن عبد ربه :

٧٠٣ يا قادراً ليس يعفو حين يقتدِرُ ماذا الذى بعد شيب الرأس تنتظر ؟

ويقول الشاعر (٥٢/٢٧٧) :

٧٠٤ أنت فى الأربعين مثلك فى العشرين م حتى متى يكون الفلاح ؟

وفى مسرحية « كليوباترة » يدور الحديث بين « حابى » و « زينون » عن الحب وينتهى الأمر بسخرية « حابى » من الشيخ المتيم فيقول أحمد شوقى على لسانه (٢٢/١٨٢) :

٧٠٥ أَفِقْ زينون واصْحُ من الغوانى أَبَعْد الشيب تخدعك النِّساءُ ؟

ويقول أبو فراس فى مطلع قصيدة له (١١/١/٤٢٥) :

٧٠٦ وقوفك بالديار عليك عارُ وقد رُدَّ الشباب المستعارُ

٧٠٧ أبعد الأربعين مجرمات تمادٍ فى الصَّبابة ثُمَّ اغترار ؟

ويقول الحسن بن هانئ من أبيات له (٨/٤٨٥) :

٧٠٨ شبت يا هذا وما تتـ ـرك أخلاق الغلام !

وقال عمر بن عبد العزيز (١٤/١/٣٨) :

٧٠٩ إنَّهَ الفـؤاد عن الصِّبـا وعـن انقيـادك للهـوى
٧١٠ فلعمـر ربك إنَّ فى شيـب المفارق والجـلا
٧١١ لك واعظاً لو كنت تتعظ م اتـعـاظ ذوى النهـى
٧١٢ حتى متى لا تـرعـوى وإلى مـتى؟ وإلى مـتى؟
٧١٣ بلىَ الشبـابُ وأنت إنْ عُـمِّـرتَ رَهْنٌ لـلبلى
٧١٤ وكفى بـذلـك زاجِـرًا للمـرء عن غىٍّ، كفى!

أما حين لا يتوجه الشاعر بالنصح إلى المخاطب مباشرة فإن حضَّه على الارعواء : إما أن يكون فى صيغة حقائق ثابتة ، أو أن يكون عن تجربة شخصية ، مثال ذلك : قول عبد الله المعتز من أبيات له (٤١/١٠٦) :

٧١٥ وما أقبح التفريط فى زمن الصِّبا! فكيف به والشيب فى الرأس شامل؟

وقول أبى سعيد الرستمى (٣٣/١٢/٥٣) :

٧١٦ قبيح بذى الشيب إن يطربا فما للمشيب وما للصِّبا؟
٧١٧ أَمِنْ بعد خمسين ضاعت سُدى وأوْدى بها اللهو أيدى سبا
٧١٨ تشيم بـروق الدمَى دائماً وقد شامت العارضَ الأشيبا؟
٧١٩ وأقبحْ بذى عـارضٍ أشيـبٍ إذا قابـل العارض الأشنبـا!
٧٢٠ وأهلك والليـل بادرْ بِهِ فقد كادت الشمس أن تغربا!

وقول الشريف أبى إبراهيم (١١/١/٤٢٥) :

٧٢١ غيـر مُسْتحسنٍ وصالُ الغوانى بعد ستين حجـة وثَمَانِ

وقول الشاعر (٤٩/٢/٣٢٥) :

٧٢٢ لمـا مضى ظاعنـاً عنَّا فودَّعنَا وكان كالشيب لم يترك له عقبا
٧٢٣ عُدنا إلى حالةٍ لا نستطيع لها وَصْلَ الغوانى وعاب الشيبُ من لعبَا

وقول الأقيشر يرفض خمراً قدمت له (١/٨/٧٩) :

٧٢٤ فقلتُ اصطحبها أو لغيرى فاهْدِها فما أنا بَعْدَ الشيب ويْلكَ والخمرُ!

٧٢٥ إذا المرء وافى الأربعين ولم يكُنْ له دون ما يأتى حياء ولا سترُ
٧٢٦ فَدَعْهُ ولا تُنكر عليه الذى أتى وإنْ جرَّ أرسان الحياة له الدَّهْر

بيد أنه على النقيض من هذا كله نجد أن من الشعراء من لا يرعوى أو يتعظ بعد حلول المشيب ، وبذلك ينقض واحدة من الحجج التى يحتج بها من يدافعون عن المشيب ويحسنونه : ذلك لأن الشاعر يحنّ إلى أحبابه فى حال الكبر ؛ كما كان يحنّ إليهم فى حال الصغر ، ويفتقد مغانيه ومراتع لهوه وصباه ، فيقول **ابن الرومى** (٤٤ / ١٠٥) :

٧٢٧ لاح شيبى فَرُحْتُ أمرح فيه مرح الطرف فى العذار المخلى
٧٢٨ وتولى الشباب فازددت ركضاً فى ميادين باطلى إذ تولىّ
٧٢٩ إن من ساءه الزمان بشىء لأحقُّ امرىء بأن يتسلىّ

ويقول **حميد الأرقط** (١١ / ٤ / ١٦٣٠) :

٧٣٠ وكنتُ خِلْتُ الشيبَ والتبدينا والهمَّ مما يذهل القرينا

ويقول **أبو نواس** (٥/٦/١٦٦) :

٧٣١ أصبح قلبى به نُدوبُ أنْدَبَه الشادِنُ الربيبُ
٧٣٢ تمادياً منه فى التَّصابى وقد علا رأسى المشيبُ
٧٣٣ أظنّنى ذائقاً حِمامى وأن إلمامَهُ قريبُ
٧٣٤ إذا فؤادٌ شجاه حب فقلّما ينفع الطبيب

ويقول **الوليد بن يزيد** يشبب بأم حبيب بنت عبد الرحمن بن مصعب (٥/٧/٥٥) :

٧٣٥ إنما هاج لقلبى شجوه بعد المشيب
٧٣٦ نظرةٌ قد وقرت فى الـ ـقلب من أمِّ حبيب

ويقول (٥/٧/١٢) :

٧٣٧ ولقد قضيت – وإن تجلّل لِمّتى شيبٌ – على رغم العِدا لذّاتى
٧٣٨ من كاعباتٍ كالدُّمى ومناصِفٍ ومراكب للصيد والنشوات

ولم يزل الشعراء يعنفون أنفسهم على مثل هذه الحال ، فيقول **علقمة بن عبده** (٩/٢٨٢) :

٧٣٩ طحا بك قلبٌ فى الحسانِ طَروبُ بُعَيْدَ الشباب عَصْرَ حَانَ مشيبُ

ويقول يزيد بن ضبة من قصيدة له أنشدها بين يدى الوليد بن يزيد (٥/٧/٩٨) :

٧٤٠ لقد لاقيتُ من سَلْمَى تباريح التناكير
٧٤١ دعت عينى لها قلبى وأسباب المقادير
٧٤٢ وما إنْ مَنْ به شيبٌ إذا يصبو بمعذور

ويقول النابغة آخر قصيدة اعتذر بها إلى النعمان بن المنذر (١٤/١/٢٣٧) :

٧٤٣ وكفكفت منى عبرةً فرددتها إلى النّحر منها مستهلٌّ ودامِعُ
٧٤٤ على حين عاتبتُ المشيب على الصّبا وقلتُ ألمّا أَصْحُ والشيبُ وازِع ؟

ويقول العجاج (١١/٤/١٦٣٠) :

٧٤٥ بكيتُ المحترن البكىُّ وإنما يأتى الصّبا الصبىُّ
٧٤٦ أطرباً وأنت قنسرىُّ[٢٠]

ويقول أعشى همدان (٥/٦/٣٨ ، الأبيات ١ – ٧ ، ١٩ – ٢٢) :

٧٤٧ طلبت الصِّبا إذ علا المكبَّرُ وشابَ القذالُ وما تُقْصِرُ
٧٤٨ وبانَ الشبابُ ولذَّاتُه ومثلك فى الجهل لا يُعْذَرُ
٧٤٩ وقال العواذل هل ينتهى فَيَفْدَعَهُ الشيبُ أويُقْصِرُ ؟
٧٥٠ وفى أربعين توفَّيتُها وعَشْرٍ مضت لىَ مُستبصر
٧٥١ وموعظةٌ لامرئ حازمٍ إذا كان يسمعُ أو يُبصر
٧٥٢ فلا تأسفن على ما مضى ولا يحزنَّك ما يُدْبِرُ
٧٥٣ فإن الحوادث تُبلى الفتى وإن الزمان به يُعْثُرُ

إلى أن يقول :

٧٥٤ فإن أُمْسِ قد لاح فىّ المشيـ ـبُ أُمَّ البنين ، فقد أذكُرُ
٧٥٥ رخاءً من العيش كنا به إذ الدهرُ خالٍ لنا مُصْحِرِ
٧٥٦ وإذ أنا فى عنفوان الشبا ب يعجبنى اللهو والسُّمَّرُ
٧٥٧ أصيدُ الحسان ويصطدنى وتعجبنى الكاعب المُعْصِرُ

---

(٢٠) ناقض أبو نواس الشعراء فى هذا بجانة فقال البيت الذى أوردناه آنفا تحت رقم ٦٥٧ .

ويقول **جندل** (٢١/١١٢/٤٢٨) :

٧٥٨ عُلِّقتُها وقد نـزا فى مِسْحَلِى شيبٌ وقد حـاز الجلا مُرَجَّلِ

ويقول **محمد الفراتى** الشاعر السورى (٣٣/١٢/١٧) :

٧٥٩ تيقظ قلبى بعد سبعين حِجةً فيالشقاء العقل من يقظة القلبِ !

٧٦٠ فأصبحتُ فى جَوٍّ من الحبِّ عاطرٍ وإن كنتُ لم أقعد لأنثى على درب

٧٦١ هوًى لجَّ بى فى كل فجٍ وسبسبٍ فما لفؤادى بعد شيبىَ والحبِّ

٧٦٢ إذا ما تذكرتُ الشبابَ وزَهْوَهُ أهيم بأحلامـى فيقتلنى كربـى

ويقول **محمود سامى البارودى** (٢٤/٢٢٥) :

٧٦٣ متى أنت عن أُحْمُوقَةِ الحىّ نازع وفى الشيب للنفس الأبيّة وازِعُ ؟

ويقول **عبد المطلب** (٢٤/٢٣٤) :

٧٦٤ أغرى بكَ الشوق بعد الشيب والهرمِ سارٍ طوى البيد من نجدٍ إلى الهرم

ويقول **محمد بن عاصم** من قصيدة له فى دير القصير (٤/٧/٦٧٢) :

٧٦٥ كم خلعتُ العِذار فيه ولم أَرْ عَ مشيباً بمفـرق وعِذارى !

ويمضى الشعراء فى اعترافهم بعدم الارعواء برغم المشيب ولوم العاذلين ، فيقول **الشاعر** (٢/١/٣١٨) :

٧٦٦ ضيَّعتُ حزْمِىَ فى إبعادِىَ الأَمَلاَ وما ارعويتُ وشيباً رأسِىَ اشتعلا

ويقول **آخر** (٨/٤٤٢) :

٧٦٧ علق الفـؤاد بريق الجهل وأبرّ واستعصى على الأهـلِ

٧٦٨ وصبا وقـد شابت مفارقُه سفهاً وكيف إصابة الكهل ؟

٧٦٩ أدركت معتصـرى وأدركنى حلمى ويسر قائدى نعلى

ويقول **جرير** (١٠/٣/٢٨٤) :

٧٧٠ قال العواذل ما لجهلك بعدما شاب المفارق واكتسين قتيرا ؟

ويقول **النابغة** (٢١/١٠٣/١٤٦) :

٧٧١ دَعَاكَ الهوى واستَجْهَلَتْكَ المنازلُ وكيف تصابِى المرء والشيبُ شامل ؟

ويقول سيبويه (٣/٤/٣٥) :

٧٧٢ ما بال جهلِكَ بعد الحِلم والدين ... وقد عَلاكَ مشيبٌ حين لا حين؟

ويقول ابن عبد ربه (١/٢/٣٥٠) :

٧٧٣ قالوا شبابُك قد وَلىَّ فقلتُ لهم ... هل من جديدٍ على كرِّ الجديدَيْن ؟

٧٧٤ صِلْ مَنْ هويت وإن أبدى معاتبةً ... فأطيب العيش وَصْلٌ بين إلْفَيْنِ

٧٧٥ واقطع حبائل خِدْنٍ لا تلائِمُهُ ... فربما ضاقت الدنيا على اثنين

ويقول أبو العباس أحمد بن مسعود محمد الخزرجي القرطبي (٥٦/٥٤) :

٧٧٦ لاموا على صبوتى والشيب مبتسمٌ ... كالزّهر يُبدى ابتهاجاً فى خمائله

٧٧٧ فقلتُ والوجدُ يطوينى وينشُرنى ... أواخِرُ اليوم أحلى من أوائله

٧٧٨ لم أترك الأنس حيناً من أحاينه ... فكيف أغفل عنه فى أصائله؟

ويروى أنه كان بأمج رجل يقال له حميد ، وكان مفتوناً بالخمر ، فهجاه ابن عم له وقال فيه (١/٨/٦٧) :

٧٧٩ حميدُ الذى أمـجٌ دارُهُ ... أخو الخمر ذو الشيبة الأَصْلَعُ

٧٨٠ عَلاهُ المشيـبُ على شُربها ... – وكان كريماً – فما ينزعُ

ولعل مِنْ أحسن ما يمكن أن يقال فى الدفاع عن المشيب أن نسمع فتاة تتمنى لو تزوجت رجلاً شاباً ، ولكن تحلى بحكمة الشيوخ ، أو تحلى رأسه بمشيب . تلك هى ابنة ذى الإصبع . فقد حدث أن ذا الإصبع استمع إلى متحدثٍ لبناته الأربعة وهُنَّ لا يعلمن ، وكانت كلٌّ منهن تتحدث عن أمنيتها فى الرجل الذى تتمنى أن يكون زوجاً لها ، فسمع ابنته الثالثة تقول (٦/٢/٣٧٦) :

٧٨١ ألا لِبْته بملا الجِفَانَ ولِيَتَهُ ... له جَفْنَةٌ تشق بها النِّيبُ وَالجُزُرُ

٧٨٢ به مُحكماتُ الشيبِ من غير كبرة ... ولا هو بالفانى ولا الضرعُ الغمرُ

وفى الدفاع عن المشيب يدافع الشاعر أيضاً عن الصلع فهو – كما سبق أن أشرنا – أحد البديلين بعد ذهاب الشباب ؛ كما أن الأصلع كالأشيب سواء بسواء من حيث تعرضه للفكاهة والسخرية والملام ، مثال ذلك : ماكتبه **عبد اللطيف الخشن** الشاعر المهجرى فى كتاب الوقائع فى حفلة

شعرية أقيمت يوم تأسيس « الرابطة القلمية » يشير إلى صلعة زميله الشاعر جورج صيدح (٣٣٧/٤٨) :

٧٨٣ لقد صُمنـا زماناً عن غذانَا وأفطرنا على الرأس الصليـع !

فقام جورج صيدح يدافع عن صلعته فقال :

٧٨٤ صلعة الخير لا أصابتك عيْنٌ من عيونِ الحُسَّادِ ذاتِ الشَّواظِ
٧٨٥ إن لى صلعة أجلّ من الشيـ ـب وأحرى بمدحـةِ القُرَّاظ
٧٨٦ يشتهى المشـط أن يمرّ عليها بخيوط دقيقة أو غـلاظ
٧٨٧ ما أنا الأصلـع الوحيدُ فيهجو صلعتى كلّ شاعرٍ مغتاظ !

انظر أيضاً ٣٥ ، ٣٤٩ ، ٦٥٨ - ٦٦٧)

٢ - د - ٢ : حتمية المشيب

وفى مجال الدفاع عن المشيب ، والرد على العاذلين واللائمين - يحاول الشعراء أن يدلّلوا على أن المشيب أمر حتمى لا منجى ولا مهرب منه ، وأن حتمية المشيب إنما هى كاستحالة عودة الشباب سواء بسواء . ويعبر أبو كبير الشاعر الهذلى عن ذلك فى البيت التالى الذى سبق أن أوردناه فى الفصل الأول تحت رقم ١٧٠ :

أزهير هل عن شيبة مِنْ مَعْدِلِ أو لا سبيل إلى الشباب الأول ؟

ونراه يستخدم فى مطلع قصائد أخرى أبياتاً شبيهة بهذا البيت من حيث الألفاظ والبناء ، فيقول فى مطلع إحداها (١٠٤/٥٠) :

٧٨٨ أزهير هل عن شيبة من مَصْرِفِ أو لا خلـودَ لباذلٍ متكلِّفِ ؟

ويقول فى مطلع أخرى (١١١/٥٠) :

٧٨٩ أزهير هل عن شيبة من مَعْكَمِ أو لا خلودَ لباذلٍ مُتكرِّمِ ؟

ويرى ساعدة بن جؤية الشاعر الهذلى أن الشيب داء لا دواء له ، وليس لصاحبه برء منه ، فيقول من قصيدة طويلة له (٢٨٦/١٩ ، البيت الثانى) :

٧٩٠ فالشيب داء شديد لا دواء له ولا لصاحبه برء من السقم !

ويقول أبو تمام (١٢/٣/٣٧٠) :

٧٩١ كل داء يُرْجَى الدواء له إلاَّ م القطيعتين ميتةً ومشيبا

وإن حتمية المشيب لترتبط بطول العمر ، ويروى لنا صاحب العقد الفريد أن أبا دلف دخل على المأمون وعنده جارية له ، وقد ترك الخضاب أبو دلف . فغمز المأمون الجارية فقالت : شِبْت أبا دلف ! إنا لله وإنا إليه راجعون ! فسكت عنها أبو دلف ، فقال له المأمون : أجبها **أبا دلف** فأطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال (٢/٣٥٦) :

٧٩٢ تَهزَّأتْ أن رأتْ شيبي فقلتُ لها لا تهزئي ، من يَطُلْ عمرٌ به يشب

٧٩٣ شَيبُ الرجال لهم زَيْنٌ ومَكْرُمةٌ وشيبُكُنَّ لكُنَّ الويلُ فاكتئبي !

وفى حتمية المشيب يقول **ابن نباتة** (١٦/٢/٢٢٣) :

٧٩٤ وإذا الفتى قطع السنين عديدةً شابَ الحياة فظلَّ يُدعى شائبا

ويقول **الشريف المرتضى** (١٢/٣/٣٧٧) :

٧٩٥ صار منى مثل الثغامة ماكا نَ زماناً محلولكاً كالغرابِ

٧٩٦ ليس يبقى شىء على حالِهِ الأوّل م فى كرّ هذه الأحقابِ

ويقول وهو يتحسر أيضاً على الشباب (١٢/٣/٣٧٣ – ٣٧٤) :

٧٩٧ جزعَتْ لوخطات المشيب وإنّما بلغ الشبابُ مدى الكمال فنوّرا

٧٩٨ والشيب إن فكرت فيه موردٌ لا بدّ يورده الفتى إن عَمَّرا

٧٩٩ يبيض بعد سواده الشَّعر الذى إن لم يزره الشيبُ واراه الثرى

٨٠٠ زمن الشبيبة لا عدتك تحيةٌ وسقاك منهمر الحيا ما استغزرا

٨٠١ فلطالما أضحى ردائى ساحباً فى ظلكَ الوافى وعُودى أخضرا

٨٠٢ أيام يرمقنى الغزالُ إذا رنا شغفا ويطرقنى الخيال إذا سرى

ويقول **حرثان ذو الإصبع** (٦/٢/٣٧٧) :

٨٠٣ أهلكنا الليل والنهارُ مَعًا والدهرُ يَعْدُو مُصمِّماً جَذَعَا[٢١]

٨٠٤ فليس فيما أصابنى عجبٌ إن كنتُ شَيْبا أنكرتُ أو صلعا

---

(٢١) أوردنا البيتين الثالث والرابع من هذه الأبيات فى الفصل الأول تحت رقمى ١٧٩ – ١٨٠ .

ويقول **الشاعر** (٢٨/١٩٠) :

٨٠٥ أشـاب الصغير وأفنى الكبير م كـرّ الغداة ومَـرُّ العشىّ

ويقول **ابن عبد ربه** (١/٢/٣٥٠) :

٨٠٦ قالوا شبابك قد ولى فقلت لهم هل من جديدٍ على كرّ الجديدَيْن؟

ويقول أيضاً (١/٢/٣٥٠ ، ٤/٩/٨٢٩) :

٨٠٧ سوادُ المرءِ تنفِدُهُ الليالى وإن كانت تصيرُ إلى نفادِ[٢٢]

٨٠٨ فأسْوَدُهُ يعـودُ إلى بياضٍ وأبْيَضُه يعـود إلى سوادِ !

وفى هذا المعنى يقول **المتنبى** (٤/٤/٣٥٥) :

٨٠٩ تسوّد الشمس منـا بيضَ أوجهنا ولا تسوّد بيض العذر واللِّمم

٨١٠ وكان حالهمـا فى الحكم واحدة لو احتكمنا من الدنيا إلى حَكَمِ

ويروى أن **أبا الأسود الدؤلى** قد دخل على معاوية وقد خضب ، فقال : لقد أصبحت يا أبا أسود جميلاً ، فلو علقت تميمة ! فأنشأ أبو الأسود يقول هذين البيتين (١/٢/٣٥٤) :

٨١١ أفنى الشبابَ الذى فارقتُ بهجتَهُ مَرُّ الجديدين من آتٍ ومُنطَلِقِ

٨١٢ لم يُبْقيا لىَ من طـول اختلافِهما شيئاً يُخاف عليه لذعةُ الحَدَقِ

كذلك يروى أن **مالك بن أسماء بن خارجة** كان قد قال لجاريته : اخضبى رأسى ولحيتى فقالت : دعنى ، قد عيبت مما أرقعك ! فقال (١/٢/٣٥٤) :

٨١٣ عَيَّرتْنى خَلَقاً أبليت جِدَّته وهل رأيتِ جديداً لم يَعُدْ خَلَقَا ؟

ومن ثم كان مجىء المشيب أمراً طبيعيًّا ، تماماً كما يجىء النهار بعد الليل ، وفى ذلك يقول **السراج الوراق** يرد على من أنكرت شيبه (١٢/٣/٣٨٢) :

٨١٤ وقالت يا سراجُ ، علاكَ شيبٌ فَدَعْ لجديده خلـعَ العذارِ

٨١٥ فقلت لها : نهـارٌ بعد ليلٍ فما يدعوكِ أنتِ إلى النفارِ؟

٨١٦ فقالت : قد صدقت وما علمنا بأَضْيعَ من سراجٍ فى نهار !

---

(٢٢) ورد هذا البيت فى يتيمة الدهر ٩/٨٢٩ مبتدئا بلفظ « شباب » بدلا من « سواد » .

وإذن فالمشيب لا مردّ له ، ولا حيلة للإنسان فى دفعه ، ولا جدوى من مقاومته ، فيقول **أبو العلاء المعرى** (١١/٣/١٢٥٢) :

٨١٧ طويتُ الصِّبا طىَّ السِّجلِّ وزارنى زمانٌ له بالشيب حُكْمٌ وإسْجالُ

ويقول **الشريف المرتضى** (١٢/٣/٣٧٧) :

٨١٨ ولو كان فيما يُحدث الدهرُ حيلةٌ أبيتُ على هذا المشيب إباءَ
٨١٩ فلا تنكرى لوناً تبدّلتُ غيرهُ كمستبدلٍ بعد الرداءِ رداءَ
٨٢٠ فإنى على العهد الذى تعهدينه حفاظاً لما استحفظتنى ووفاءَ
٨٢١ كأن الليالى عنه لما رمينى جَلونَ صداءً أوكشفن غطاءَ

ويقول **أبو الحسن محمد بن الوزير الحافظ** (٤/٧/٦٦٠) :

٨٢٢ منذ حَلَّ السوادُ حَلَّ البياضُ واعتداءاته طِوالٌ عِراضُ
٨٢٣ وإذا ماطغى المشيب فلا المنقاش م يقوى بــه ولا المِقــراضُ
٨٢٤ وكثيراً أرى جساماً صحاحاً لأناسٍ فيهــا قلوبٌ مِراضُ

وعن عدم جدوى مقاومة المشيب أيضاً قال **أعرابى** ، ويقال الشعر لأبى دلف (٣٢٥/٢/٤٩) :

٨٢٥ فى كل يومٍ مــن الأيام نابتةٌ كأنما نبتتْ فيه على بَصَرى
٨٢٦ لئن قرضتُك بالمقراضِ عن بصرى لما قرضتُك عن همٍّ ولا فِكرى

ومادام المشيب أمراً حتمياً فإنه ينبغى علينا أن نكفّ عن ذمه ، وفى ذلك يقول **عبد الله بن حنين الحيرى** من أبيات له (٣٥٩/٢/٦) :

٨٢٧ هلا بكيت على الشباب الذاهِب وكففت عن ذمِّ المشيب الآئبِ !

بل إن حتمية المشيب تجعل المرء يعتاده ولا يرضى عنه بديلاً ، فيقول **المتنبى** (٩٠/٥٨) :

٨٢٨ خُـلِقْتُ ألوفاً لو رددتُ إلى الصِّبا لفارقتُ شيبى موجعَ القلب باكيا !

وفى مجال الدفاع عن المشيب نجد هذه الأبيات الطريفة للشاعر المهجرى **إلياس حبيب فرحات** قالها فى ابنته الصغرى « منى » التى تضاحكت من صلعته ، وفيها يؤكد حتمية المشيب (٤٨٧/٤٨) :

٨٢٩ عبثت «منای» بصلعتی وتضاحکت لما رأتنی للتمشط أنشطُ
٨٣٠ ومضت بلثغتها تقول لأمها : أرأیت «ماما» أقرعاً یتمشط ؟
٨٣١ أبنیتی إنّ الحیاة لسُلَّمٌ یهنیك أنك تصعدین وأهبطُ
٨٣٢ والدهر یا ولدی یغَرْبِلُ لمّتی فالبِیضُ تثبتُ والحوالِكُ تسْقُط !

٢ – د – ٣ الشیب المبکر

من بین المعاذیر التی یسوقها الشاعر دفاعاً عن المشیب قوله : إنه شیب مبکر قد جاء قبل أوانه ، وفی هذا المعنی یخوض معظم الشعراء ، فیقول **عبد المحسن الصوری** (٤/٦/٤٨٨) :

٨٣٣ فی أوان الشباب عاجلنی الشیب م فهذا من أول الدنّ دردی

وأنشد **ابن الأعرابی** (٢١/١٠٠/١) :

٨٣٤ قد هرّمتنی قبل إبّان الهَرَمْ وَهْیَ إذا قلت کُلی قالت : نَعَمْ
٨٣٥ صحیحة المعدة من کلّ سقَمْ لو أکَلَتْ فِیلَیْن لم تخْش البَشَمْ !

ویقول **الشریف المرتضی** (١٢/٣/٣٧٤) :

٨٣٦ ولقد أتانی الشیب فی عصر الصّبا حتی لبستُ به شباباً أبیضا
٨٣٧ لم ینتقص منی أوان نزولِهِ بأساً أطال علی العداة وأعرضا
٧٣٨ فکأنما کنت امرأً مستبدلاً أثوابه کره السوادَ فبیَّضا

ومن بین الأسباب التی یعزی الشعراء إلیها الشیب المبکر کثرة **الهموم** ، کقول **الشاعر** (٤٩/٢/٣٢٤) :

٨٣٩ شاب رأسی وما رأیت شیبَ الرّأس م إلا من فضل شیب الفؤادِ
٨٤٠ وکذاك القلوب فی کل بؤس ونعیم طلائعُ الأجساد
٨٤١ طال إنکاری البیاضَ فإن عمّرت م شیئاً أنکرتُ لونَ السَّوادِ

ونحن نقرأ عن **ابن نباتة المصری** « أنه کان کثیر الشکوی من الکبر ، شدید التألم من الشیب ، فهو فی أکثر شعره یندب شبابه ، ویبکی ماضی قوته ، ویفزع مهولاً من الشیب والهرم » ونجده هنا یعلل اشتعال شیبه بکثرة الهموم فیقول : (١٦/٢/٢١٣) :

٨٤٢ مَنْ یحارب حوادث الدهر یَخْفَی لونُ فَوْدَیْه فی غُبار الحروبِ
٨٤٣ مَنْ یَعُمْ فی بحار همّی یظهرْ زَبَدٌ فوق قَرْعِهِ الغربیب

٨٤٤ أيُّ فرعِ جَوْنٍ على عنت الأيام م يبقَ؟ وأيُّ غصنٍ رطيب؟
٨٤٥ لو هَمَى ماءُ مِعطَفَيَّ من اللين م لأفنتهُ مهجتى بلهيب

ويقول (١٦/٢/٢١٣) :

٨٤٦ أمَّا الهموم فبحر خُضْتُ زاخرهُ أما ترى فوق رأسى فائض الزَّبَدِ؟

ويقول من قصيدة يرثى ولداً له مات صغيراً (١٥/١/٢١٢) :

٨٤٧ أبُنَيَّ ، قد وَقَفَتْ علىَ حوادثُ فوقفن مـن طَلَلٍ على آثارِ
٨٤٨ ومضى البياضُ من الحياة وطيبها لكنها أبْقته فـوق عِذارى

ويقول المتنبى (٤/٤/٣٣٤) :

٨٤٩ والهَـمُّ يخترمُ الجسيم نحافـةً ويشيب ناصية الصَّبى ويُهْرِمِ

وقد يكون الشيب المبكر من **الخطوب والمحن** كقول **كعب بن سعد الغنوى** يرثى أخاه (٦٢/٣٥) :

٨٥٠ تتابع أحداثٍ تخَرَّمْنَ إخوتى وشَيَّبْنَ رأسى والخطوبُ تشيب

وقال **ابن زيدون** لما اشتد حزنه وهو فى سجنه ورأى الشيب فى رأسه فأنشأ يشكو ويستضعف :

٨٥١ لم تَطو بُرْدَ شبابى كَبْرة ، وأرى بَرْق المشيب اعتلى فى عارض الشَّعَرَ
٨٥٢ قبل الثلاثين إذ عهدُ الصِّبا كثبٌ وللشبيبة غصـنٌ غيرُ مُهْتَصر
٨٥٣ ياللرزايا ! لقد شافهتُ منهلها غَمْراً ، فما أشربُ المكروه بالغُمَر

وقد يكون الشيب المبكر من الأهوال كهول الليل فى قول **أبى العلاء المعرى** (١١/١/٧٢١) :

٨٥٤ وجنح يملأ الفَوْدَيْن شَيباً ولكن يجعلُ الصحراء خالا

وكذلك هول السنين ، كقول **الصمّة بن عبد الله القشيرى** (٩/٢٣٦ ، ٥٥/١/٣٢٠) :

٨٥٥ ذرانى مـن نجدٍ فإن سنينَهُ لَعِبْن بنا شيباً وشيَّبْنَنا مُرْدا[٢٣]

ويتحدث **حريث بن سلمة بن مرارة** عن الأهوال التى يتعرض لها الرجل فيشتعل منها الرأس

(٢٣) ورد هذا البيت فى شرح ابن عقيل ١ /٣١ مبتدئا بلفظ « دعانى » بدلا من « ذرانى » .

شيباً على حين أن النساء منعمات فى الخدور ، ومع ذلك ينكرن عليهم ذلك المشيب المبكر فيقول (٥٣٤/٨) :

٨٥٦ تقول ابنة العمرىّ لما رأيتها : تَنكرتَ حتى كدتُ منكَ أُهالُ
٨٥٧ فإن تعجبى منى عميرُ فقد أتت لياليِ وأيـامٌ علىّ طوالُ
٨٥٨ وإنى لمن قوم تشيب سراتهم كذاك وفيهم ناثلٌ وفِعال
٨٥٩ ولو لقيتْ ماكنتُ ألقى من العدى إذَنْ سال منها مفرق وقذال
٨٦٠ ولكنها فى كلّةٍ كل شتوةٍ وفى الصيف كِنٌّ بارد وحجالُ
٨٦١ تصان تعل المسك حتى كأنها إذا وضعت عنها النصيف غزال

وأهوال الحروب والوقائع والحوادث كلها تشعل الرأس شيباً قبل الأوان ، فيقول **الشاعر** (٥٤٨/١١٦/٢١) :

٨٦٢ فظلال السيوف شيبن رأسى واعتناق فى الحرب صُهْبَ السبالِ

ويقول **أبو الطفيل** عامر بن واثلة بن عبد الله عمير الصحابى (٣١/٤/٣) :

٨٦٣ أيدعونى شيخاً وقد عشتُ حقبةً وهنَّ من الأزواج نحوى نوازِعُ
٨٦٤ وما شاب رأسى من سنين تتابعت علىَّ ولكن شيبتنى الوقائع[٢٤]

ويقول **عبد الله بن قيس الرقيات** (٤٢٣/٦/١) :

٨٦٥ إن الحوادث بالمدينة قد شيبنى وقَرَعْنَ مَرْوَتيهْ

وقد يكون الشيب المبكر بسبب **الحزن** ، كقول **عبد الله بن الزبير الأسدى** (٢٢٩/٢/٣) :

٨٦٦ رمى الحدثان نسوة آل حربٍ بمقدارٍ صَمَدْنَ له صُمـودَا
٨٦٧ فَرَدَّ شعورهن السود بيضـاً وردَّ وجوهَهُنَّ البيضَ سُودا

وقد يكون الشيب المبكر من **أهوال الهوى وصدود الغوانى** فيقول **ابن فارس** من أبيات كتبها لأبى القاسم بن حسولة (٥٩/٤٠) :

٨٦٨ وأنتِ التى شَيَّبْت – قبل أوانه – شبابى ، سقى الغُرَّ الغوانى شَبَابَكِ

---

(٢٤) جاء فى المنتخب ٢ /٧٧ ونهاية الأرب ٣ /٦٥ أن هذا البيت من قول عروة بن الورد .

ويحدثنا **أبو العباس النامى** أنه لقى من حبيبته ماأفشى الشيب فى لمته فيقول (٣٦٧/٤/٤) :

٨٦٩ سلاها إذِاسْوَدَّ الهوى فى ابيضاضه وإلاّسلانى ، كيف بَيَّضَ مِسْوَدِّى ؟

٨٧٠ كأنّ برأسى عسكريْن تحاربا فقد كَثُرَ استئمانُ جُنْد إلى جُنْدِ !

ويقول **الشاعر** (٧٨/٧/١) :

٨٧١ تكنفنى الهوى طفلاً فشيَّبنى وما اكتهلا

ويقول **ابن سناء الملك** فى مطلع قصيدة دالية موجهة إلى الوزير القاضى الفاضل (٦٠/١/٢٧) :

٨٧٢ شيَّبَ فَوْدى رمادُ نارِ فؤادى من رمى قلبى بهذا الرمادِ؟

ويقول **أبو فراس** (١١١/٧/٤٥) :

٨٧٣ وما إنْ شِبْتُ من كبر ولكن لقيتُ من الأحبة ما أشابا

وقد يكون الشيب المبكر بسبب **الفراق وهجران الأحبة** كقول **أبى عثمان سعيد بن هاشم الخالدى** ، وهو مما ينسب إلى الوزير المهلبىّ (١٠٠٧/١١/٤) :

٨٧٤ فديتُك ماشبتُ من كِبْرةٍ وهذى سِنِّى وهذا الحسابُ

٨٧٥ ولكن هجرتَ ، فحلَّ المشيب ولو قد وَصَلْتَ لعاد الشباب

وقوله (١٠٠٧/١١/٤) :

٨٧٦ متبرمٌ بعتابهِ مُسْتعذبٌ لعذابِهِ

٨٧٧ هَجَرَ العميد تَعمُّداً فغدا وراحَ لما بِهِ

٨٧٨ وكساه ثوب مشيبِهِ فى عنفوانِ شبَابِه

٨٧٩ فتراه يؤذِنُ فى أوا نِ مجيئِه بِذهابِهِ

وقول **البهاء الساعاتى الدمشقى** (١٢٢/٥٦) :

٨٨٠ فؤادى وفودى بعد لمياء أشيبُ وقلبى على جمر الغَضَى يتقلَّبُ !

وقول **الشاعر** (٢٥٢/٦/٥) :

٨٨١ عبد مُنِّى وأنعمى قد ملكتُم قيادِيَهْ

٨٨٢ شاب رأسى ولم تشبْ وابلائى لِداتيه !

وقول **محمود سامى البارودى** فى مطلع قصيدة يصف فيها الفراق (٢٥٣/١/١٥) :

٨٨٣ محا البينُ ما أبقت عيونُ المها منِّى وشبتُ ولم أقض اللُّبانةَ من سِنِىٍّ

وقول **عبد الله الصفرى** (٦٧٧/٨/٤) :

٨٨٤ بدا الشيبُ فى رأسى فقالت تعجباً لقد شِبتَ من هجرى ، وأنت صغيرُ

٨٨٥ فقلتُ لها : لاغرو ، إن وصالكم يردّ شباب المرء وهْوَ كبيرُ

وقول **ابن عبد ربه** (٣٠٤/٦/١) :

٨٨٦ كتب الدمعُ بخدّى عهدهُ للهوى والشوقُ يُملى ماكَتَبْ

٨٨٧ مـالجهلى مـاأراهُ ذاهِـباً وسوادُ الرأسِ منى قد ذَهَبْ

٨٨٨ «قالت الخنساء لما جئتُها : شاب بعدى رأس هذا واشتهبْ» !

وقد يكون مبعث الشيب المبكر **محنة الاغتراب** ، كقول **الحسن بن محمد بن بابل** (٨١١/٩/٤) :

٨٨٩ ألا ماجسمى قد علاهُ شحوبُ ؟ ومابالُ قلبى ضَامَرْته كروبُ ؟

٨٩٠ ومابال أحشائى تَوقَّدُ لوعةً ؟ ومابالُ رأسى قد علاهُ مشيبُ ؟

٨٩١ وماذاك إلا أنْ رمتنى يدُ النَّوى وأنى فى أرجاء مصر غريبُ

وقول **فوزى المعلوف** الشاعر المهجرى عن نفسه فى ملحمته الشعرية بعنوان «بساط الريح» (٢٧٦/٤٨) :

٨٩٢ هو فى ميعة الشباب ولوحدقت م فيه ألفيت شيخاً هزيلا

٨٩٣ فهو لايعرف التبسُّم إلاّ عندما يستعيد حلماً جميلا

وقد يكون الشيب المبكر من **نقص المال** الذى يمنح المرء قوة وسلطاناً ، كقول **الطرماح** (٤٨٦/٨) :

٨٩٤ وشيبنى ألاَّ أزال مناهضـاً بغير قوىً أنزو بها وأبوعُ[٢٥]

٨٩٥ وأن رجال المال أضحَوا ومالهُم لهم عند أبواب الملوك شفيع

٨٩٦ أُحترمى ريب المنون ولم أنل من المال ما أعصى به وأطيعُ ؟

---

(٢٥) ورد عجز هذا البيت فى المصدر نفسه ص ٥٤٤ هكذا : بغير ثرأ أنزو به وأبوعُ .

وقد يكون من **سطوة الرجال** ، كقول **العبدوسى محمد بن عبدوس الواسطى** (١٨/٥٦) :

٨٩٧ اسْمعْ أخى مـــن أخِى اختبارٍ قد شَيَّبَتْ رأسه الرِّجالُ

وقد يكون الشيب المبكر مبعثه **جور الحكام** : كقول **ابن عبد ربه** (٣٥٠/٢/١) :

٨٩٨ جَارَ المشيبُ على رأسى فَغَيَّرهُ لما رأى عندنا الحكامَ قد جاروا

٨٩٩ كأنما جُنَّ ليلٌ فى مفارقه فاعتاقه من بياض الصُّبح إسفارُ

وقول **أبى الطيب** (٨٥٦/٢/١١) :

٩٠٠ لقد شَبَّ فى هذا الزمان كهولُه لديك وشابتْ عند غيرك مُرْدُهُ

ومن الشعراء من لايحاول تبرير المشيب بأنه حلّ قبل أوانه ، وإنما يكتفى بالعجب والاستنكار ، فيقول **أبو فراس الحمدانى** من قصيدة له (٧٠/١/٤) :

٩٠١ عذيرى مِنْ طوالعَ فى عِذارى ومن رَدِّ الشباب المستعـارِ

٩٠٢ وثوبٍ كنتُ ألبسُه أنيـقٍ أجرِّر ذيله بين الجـوارى

٩٠٣ وما زادت عن العشرين سنِّى فما عذر المشيب إلى عِذارى

وما استمتعتُ من داعى التصَّابى إلى أن جاءنى داعى الوقارِ[٢٦]

وقد أخذ البيت الثالث من قول **أبى نواس** :

٩٠٤ وإذا عـددتُ السِنَّ كَمْ هى لم أَجِدْ للشَّيبِ عُذراً للنزول براسى

ولايرى **ابن الرومى** عجباً فى أن يشيب الفتى ، فيقول فى مطلع قصيدة يخاطب فيها علىَّ بن يحيى (٨٢/٣٥) :

٩٠٥ شاب رأسى ولات حين مشيب وعجيب الزمان غير عجيب

ويقول (١٠٨/٧) :

٩٠٦ قد يشيب الفتى وليس عجيباً أن ترى النار فى القضيب الرطيب !

---

(٢٦) سبق أن أوردنا هذا البيت تحت رقم ٦٤٢ من هذا الفصل ولذلك لم نعطه هنا رقما .

الفصل الثالث

مقاومة المشيب : الخضـــاب

ومما يفعله المشيب أيضاً أنه يضطر الشاعر إلى اللجوء إلى الخضاب طوعاً أو كرهاً : فهو بعد أن يستنفد الحجج فى الدفاع عن المشيب – يحاول أن يقاومه ، وذلك بإخفائه بالخضاب . غير أن الشعراء لايجمعهم فى ذلك رأى واحد : فمنهم : من يستحسن الخضاب ويحضّ عليه ، ومنهم من يستهجنه ويراه نفاقاً وزوراً ، ومنهم من يرى أنه ضرورة لابدّ منها ويلجأ المرء إليها على كره منه ، ومنهم من يرى أنه لاجدوى منه .

٣ – أ : استحسان الخضاب والحضّ عليه :

مما قيل فى استحسان الخضاب أنه أحد الشبابين ، وأنه تذكرة الشباب ، فنجد أن **ابن المعتز** مثلاً يرى أن الخضاب شباب جديد فيقول (١١٠/٧) :

٩٠٧ وقالوا النصول مشيب جديد فقلت الخضاب شباب جديد

٩٠٨ أساء هذا بإحسان ذا فإن عاد ذاك فهْو يعود

ومن الشعراء من يرى أن الخضاب تجديدٌ لما أخلقه صرف الزمان ، ونحن نقرأ أنه كانت عند معاوية جارية أعز جواريه عنده ، كانت متولية خضابه ، فغناه **بديح** [٢٧] فى مجلس عبد الله بن جعفر (١/٧/٢٠ – ٢١) :

٩٠٩ أليس عندك شكرٌ للّتى جَعَلَتْ ماابيضّ من قادماتِ الريش كالحُمَمِ

٩١٠ وَجَدَّدَتْ منكَ ماقد كان أَخْلَقَهُ صرفُ الزمانِ وطولُ الدَّهرِ والقِدمِ ؟

ومن الشعراء من يرى أن الخضاب إماتة للشيب ، ومن ثم فهو مبعث للحياة ولو إلى حين ، فيقول **الشاعر** (١١٠/٧) :

---

(٢٧) جاء فى العقد الفريد ٢ /٣٥٤ أن الجارية هى التى غنت .

٩١١ الشيب موتى ولكن فى إماتته نحيا الليالى قليلاتٍ وأياما

ويبرر **المتنبى** اللجوء إلى الخضاب بأن أحسن الشعر هو الفاحم السواد ، فيقول (٣٥٥/٤/٤) :

٩١٢ مُشِبّ الذى يبكى الشبابَ مُشيبُهُ فكيف تَوقِّيهِ وبانيه هادِمُهْ ؟

٩١٣ وماخَضَب الناس البياضَ لأنه قبيحٌ ، ولكنْ أحسنُ الشَّعر فاحِمُهْ

ومن الشعراء من يخضب الشيب يبغى ودّ الغوانى ، كقول **أبى سهل النوبختى** (٣٨٣/٣/١٢) :

٩١٤ أخضبُ الشيبَ للغوانى أبغى به عندها وِدادا !

٩١٥ لكنْ خضابى على شبابى لبستُ من بعده الحدادا

ونجد فكرة الحِداد هذه فى أبيات لابن الرومى سيأتى ذكرها فى نهاية هذا الفصل ، وفى قول **يحيى ابن عبد الملك بن هذيل** يلتمس عذرا لخضابه (٧٢٧/٨/٤) :

٩١٦ لما رأت شَعرى تغيّر لونُه ورأته محتجباً وراء حجابِ

٩١٧ قالت : خضبتَ ، فقلت شيبى إنما لَبِسَ الحدادَ على ذهابِ شبابى !

٣ – ب : استهجان الخضاب ورفضه :

قيل فى ذم الخضاب : إن الإسكندر قال لرجل خضب الشيب : هب أنك خضبت سائر آثار الكبر ، وفى هذا المعنى يقول **أبو العباس** (٣١٣/١/٥٥) :

٩١٨ تغضُّ الشيبَ جَهْدَكَ بالخضابِ لترجع فيكَ أُبهةُ الشبابِ !

٩١٩ فكيف وقد كساك الشيبُ ثوباً كأخلقِ مايكونُ من الثياب ؟

٩٢٠ به ظهرتْ معايبُ فيك شتَّى حوادِثُ لم تكن لك فى حساب

٩٢١ تعيب الشيبَ من سفَهٍ وجهلٍ وأعيَبُ منه شُغْلُكَ بالخضاب !

ويقول **محمود بن الحسين كشاجم** الكاتب (٨٤/٢/١٤) :

٩٢٢ ياخاضبَ الشيب والأيام تظهره هذا شبابٌ لعمرُ الله مصنوعُ !

٩٢٣ أذكرتنى قول ذى لُبٍّ وتجربةٍ فى مثله لك تأديبٌ وتقريعُ

٩٢٤ إن الجديدَ إذا مازيد فى خَلَقٍ تَبيَّن الناسُ أن الثوبَ مرقوعُ

ومن الشعراء من يحض على رفض الخضاب ؛ لأنه يذهب بجمال المشيب ، كقول **الشاعر** (١٢٨٤/٣/١١) :

٩٢٥ الشيبُ أبهى من الشباب فلا تُهجِّنْه بالخضابِ
٩٢٦ هذا غرابٌ وذاك بازٌ والبازُ أبهى من الغُرَابِ

وبالإضافة إلى هذا كله نجد من الشعراء من يرى أن الخضاب أمرٌ يدعو إلى التعيير به ؛ لأنه يزيد من قبح المشيب ، فيقول **الشاعر** (١١١/٧) :

٩٢٧ خضبتُ شيبي ليخفى وكان ذاكَ لِعِلَّهْ
٩٢٨ فقيل شيخٌ خضيبٌ قد زَوَّدَ الطين بِلَّهْ

ويرى **المتنبي** أن الخضاب كذب وخداع فنسمعه يقول (١١١/٧) :

٩٢٩ ومن هوى كل ماكانت مموهة تركت لون مشيبي غير مخضوب
٩٣٠ ومن هوى الصدقَ فى قوله وعادته رغبت عن شَعر فى الوجه مكذوب

وفى هذا المعنى نجد أن أبا **إسحق الصابى** يضرب المثل على الفرق بين الصديق المخلص والصديق المنافق بسواد الشعر الطبيعى والسواد الناتج عن الخضاب فيقول من أبيات له ردَّ بها على كتاب بعث به إليه أبو محمد جعفر بن ورقاء الشيبانى يعاتبه على انقطاعه عن زيارته (١٤٥/٢/٤) :

٩٣١ لاتَفْرَحَنَّ من الصديق بشاهدٍ حتى يكون موافِقاً للغيبِ
٩٣٢ وتأمَّل المسْوَدَّ من شَعْرِ الفتى أهو الشبيبةُ أم خِضابُ الشيبِ ؟

ويرى **ابن طباطبا** أن الخضاب غشٌ وخديعة ، فنسمعه يقول (٦٤٩/٧/٤) :

٩٣٣ قالت أراكَ خضبتَ الشيبَ ، قلت لها سترتُه عنكِ ياسَمْعى ويابَصَرى
٩٣٤ فاسْتضحكتْ ثم قالت من تعجُّبِها : تكاثر الغِشُّ حتى صار فى الشَّعر !

ويرى **السرىّ الرفاء** أن الخضاب زور ، وأن المشيب إنما هو خضاب الله ، فيقول (٨٩٩/١٠/٤) :

٩٣٥ خَلَتْ منه ميادين التَّصابى وعُرِّىَ منه أفراس الشبابِ
٩٣٦ وزَهَّدَهُ خضابُ اللهِ لمَّا تولى عنه فى زُوْرِ الخضاب

ومن ثم : فإن ستر الشيب بالخضاب ليس هو الستر الحقيقى وإن مايسعى إليه المرء هو أن يستر الله شيبه من النار وفى ذلك يقول **الشاعر** (١١١/٧) :

٩٣٧ ياخاضِبَ الشيب بالحِنَّا ليستره سَلِ الإلهَ له سِتْراً من النار

ويستهجن آخر الخضاب ؛ لأنه يعتبره مشاركة للخالق فى صبغته فيقول (١١١/٧) :

٩٣٨ يا خاضب اللحية ماتستحى تشارك الرحمن فى صبغته !

٩٣٩ أقبح شىء شاع بين الورى أن الفتى يكذب فى لحيته

ومن الشعراء من يرفض حض الغوانى لهم على الخضاب ؛ لأنهم يرون أن المشيب نذير ينبغى الإصغاء إليه ، وهذا مايتفق فى المعنى مع ماأوردناه تحت ٢ – ب – ٤ من أن المشيب طريق الردى ، فيقول **الشاعر** (٣٥٥/٢/١) :

٩٤٠ وقائلةٍ تقول وقد رأتنى أُرَفِّعُ عارضَىَّ من القتيرِ :

٩٤١ عليك الخِطْرَ علَّكَ أن تَدَنَّىَ إلى بيضٍ ترائبُهُنَّ حورِ

٩٤٢ فقلتُ لها : المشيبُ نذيرُ عُمْرى ولستُ مُسَوِّداً وَجْهَ النذير

وفى هذا المعنى يقول **شُميم الحلى** (٧/٥٦) :

٩٤٣ أقولُ لآمرةٍ بالخضاب تحاول رَدَّ الشبابِ النضِير

٩٤٤ أليس المشيبُ نذيرَ الإلهِ ومن ذا يُسَوِّدُ وَجْهَ النذير؟

ويقول **أحمد النَهرجورىّ** (٧/٥٦) :

٩٤٥ وقائلةٍ تَخَضَّبْ فالغوانى قعودٌ عن مصاحبة الكُهولِ

٩٤٦ فقلتُ لها : المشيب رسولُ ربىٍّ ولستُ مُسَوِّداً وَجْهَ الرسولِ !

٣ – ج : ضرورة الخضاب :

ومن الشعراء من يرى أن الخضاب ضرورة لامندوحة عنها ، فنسمع **ابن عبد ربه** يستحث نفسه على اللجوء سريعاً إلى الخضاب فيقول (٢٩٢/٦/١) :

٩٤٧ وَلَّتْ حميا الشبابِ عنى فَلَهْفَ نفسى على الشبابِ

٩٤٨ أصبحتُ والشيبُ قد علانى يدعو حثيثاً إلى الخضاب

أما **محمود الوراق** فيرى أن الشيب ضيف يحلّ عند المرء ، ومن حق الضيف أن يُقرى ، وقرى الشيب هو الخضاب ، فيقول (٣٥٥/٢/١) :

٩٤٩ للضيف أن يُقرَى ويُعرَفَ حقُّهُ والشيبُ ضيفُكَ فاقرِهِ بخضابِ
٩٥٠ وافى بأكذَبِ شاهدٍ، ولربما وافى المشيبُ بشاهدٍ كذّابِ
٩٥١ فأزِحْ شهادته عليك بِخَضْبِهِ تنفى الظنونَ به عن المرْتاب
٩٥٢ فإذا دنا وقت المشيب فَخلِّهِ والشيبُ يذهبُ فيه كُلَّ ذهاب

وإن الخضاب لضرورة مكروهة ؛ إذ يعمد إليه المرء على كره منه ، اتقاءً لعزوف الغوانى عنه ، فيقول الشاعر (٣٥٥/٢/١) :

٩٥٣ إن شيئاً صلاحُه بخضَابِ لعَذابٌ مُوَكَّلٌ بعذابِ
٩٥٤ فَوَحَقّ الشبابِ لولاه والبيضُ م وأن تشمئزَّ نفسُ الكِعابِ
٩٥٥ لأرحتُ الخدَّيْن مِنْ وضَر الخِطْـ ـر وآذَنْتُ بانقضاء الشباب

بيد أن **عبدان الأصفهانى** يرى غير هذا الرأى : فالخضاب إن كان عنده ضرورة فإن مايدعو إليه ليس هو الرغبة فى اجتذاب الغوانى ؛ وإنما الرغبة فى إخفاء المشيب الذى يطالعه فى المرآة كل يوم ينعى إليه نفسه ، وهو مايتفق مع ماسبق أن تحدثنا عنه فى ٢ – ب – ٤ عن ارتباط المشيب فى وجدان الشاعر بالموت ، يقول عبدان الأصفهانى (١١٠/٧) :

٩٥٦ فى مشيبى شماتةٌ لعداتى وهو ناعٍ منغِّصٌ لحياتى
٩٥٧ ويعيبُ الخضابَ قومٌ وفيه لىَ أنس إلى حضور وفاتى
٩٥٨ لا ومن يعلم السرائر منى مابه رُمْتُ خلة الغانيات
٩٥٩ إنما رُمْتُ أن يُغيِّب عنى ماتُرينيهِ كُلَّ يومٍ مِراتى
٩٦٠ وهو ناعٍ إلىّ نفسى ومن ذا سَرَّهُ أن يرى وُجوه النُّعاةِ ؟

٣ – د : عدم جدوى الخضاب :

ومن الشعراء من يرى أن الخضاب ماهو إلا حَلٌّ مؤقت لمشكلة المشيب ؛ إذ إنه سرعان ماينقشع ، ويعود المشيب إلى الظهور من جديد ، ومن ثم فإن الخضاب عديم الجدوى ، وفى ذلك يقول **على بن جبلة** وهو يمدح عبد الله بن طاهر (٨٩/١٨) :

٩٦١ راعَهُ الشيبُ إذ نَزَلْ وكفاهُ من العَذَلْ
٩٦٢ وانقضتْ مُدَّةُ الصِّبا وانقضى اللهو والغَزَلْ

٩٦٣ قد لعمرى دَمَلْتُهُ بخضابٍ فما اندملْ
٩٦٤ فابْكِ للشيبِ إذْ بدا لاعلى الربْعِ والطلَلْ

ويقول **الحسن بن على** رحمه الله (٣٥/١/١٤) :

٩٦٥ نُسَوِّدُ أعلاها ، وتأبى أصولُها فليت الذى يَسْوَدُّ منها هو الأَصْلُ

وفى هذا المعنى يقول **محمود الوراق** (١١١/٧) :

٩٦٦ ياخاضِبَ الشيبِ الذى فى كل ثالثةٍ يعودُ
٩٦٧ إن النصول إذا بدا فكأنه شيبٌ جديد
٩٦٨ بدويةٍ رعويةٍ مكروهها أبداً عتيد
٩٦٩ فَدعِ المشيب كما أرا دَ فلن يعود كما تُريدُ

ويقول **ابن عبد ربه** فى عدم جدوى الخضاب ومتحسراً أيضاً على الشباب (٣٠٢/٦/١) :

٩٧٠ بياضُ شيبٍ قد نَصَعْ رَقَّعْتُهُ فما ارتقَعْ
٩٧١ إذا رأى البيض انقمعْ ما بين يأسٍ وطمعْ
٩٧٢ للهِ أيامُ النخعْ «ياليتنى فيها جَذَعْ !
٩٧٣ أَخُبُّ فيها وأَضَعْ»

ويقول أيضا (٣٥٥/٢/١ - ٣٥٦) :

٩٧٤ أَصَمَّمَ فى الغَوايةَ أَمْ أنابا وشيبُ الرأس قد أَنْضى الشبابا
٩٧٥ إذا نَصَل الخضابُ بكى عليه ويضحك كلما نَصَلَ الخضابا
٩٧٦ كأنَّ حمامةً بيضاء ظَلَّتْ تُقاتِلُ فى مفارِقِهِ غُرابا

وفى عدم جدوى الخضاب عند العجائز يقول **الشاعر** (٥١٢/١١٦/٢١) :

٩٧٧ عجائزٌ يطلبن شيئاً ذاهباً يخضبن بالحِناء شيباً شائباَ
٩٧٨ يقُلْنَ كنّا مرةً شبائباَ

وعن افتضاح الخضاب يقول **الشاعر** (٨٤/٢/١٤) :

٩٧٩ تولى الجهل وانقطع العتابُ ولاح الشيبُ وافتضح الخضابُ
٩٨٠ لقد أبغضتُ نفسى فى مشيبى فكيف تحبنى الخودُ الكعابُ ؟

ويقول آخر مشيراً إلى التناقض بين سواد الخضاب وتجاعيد الوجه ، وهو مايتفق مع قول الإسكندر الذى بدأنا به ٣ – ب (٣٥٥/٢/١) :

٩٨١ بكَرتْ تُحَسِّنُ لى سوادَ خضابى لكأنَّ ذاك يعيدنى لشبابى !
٩٨٢ وإذا أديمُ الوجه أخلقه البلى لم يُنتفَعْ فيه بحُسنِ خضاب
٩٨٣ ماذا ترى يُجدى عليكَ سوادُهُ وخلاف مايرضيكَ تحت ثيابى ؟
٩٨٤ ماالشيبُ عندى والخضابُ لواصِفٍ إلا كشمسٍ جُلِّلتْ بسحابِ
٩٨٥ تخفى قليلاً ثم يَقْشعُها الصَّبا فيصيرُ ماسُتِرتْ به لِذهابِ

ولابن الرومى عدة أبيات فى عدم جدوى الخضاب وهو يصفه بأنه حداد على الشباب ، وقد سبق أن روينا فى ٣ – أ أبياتا لكل من أبى سهل النوبختى ويحيى بن عبد الملك بن هذيل تحمل هذا المعنى . يقول ابن الرومى (٣٨٢/٣/١٢ – ٣٨٣) :

شاب رأسى ولات حين مشيب وعجيبُ الزمان غير عجيب[٢٨]
٩٨٦ ساءها أن رأت حبيباً إليها ضاحك الرأسِ عن مفارق شِيب
٩٨٧ فدعته إلى الخضاب وقالت : إنَّ دَفْنَ المعيب غير معيب
٩٨٨ ياحليف الخضاب لاتخدع النفْـ ـسَ فما أنتَ للصِّبَا بنسيب !
٩٨٩ ليس يُجدى الخضابُ شيئا من النفْـ ـع سوى أنه حداد كئيب
٩٩٠ فاتخذه على الشبابِ حداداً وابْكِ فيه بعبرة ونحيب

ويقول **ابن الرومى** أيضاً مشيراً فى البيت الأخير من الأبيات التالية إلى تناقض سواد الخضاب مع تجاعيد الوجه ، وهو ماسبق أن أشرنا إليه آنفا (٣٨٢/٣/١٢) :

٩٩١ رأيت خضاب المرء عند مشيبه حداداً على شرخ الشبيبة يُلْبَسُ
٩٩٢ وإلاّ فما يغزو امرؤ بخضابه أيطمع أن يَخْفى شباب مدلسُ ؟
٩٩٣ وكيف بأن يخفى المشيب لخاضبٍ وكُلُّ ثلاثٍ صُبْحُهُ يتنفَّسُ ؟
٩٩٤ وَهْبْهُ يوارى شيْبه ، أين ماؤه ؟ وأين أديمٌ للشبيبة أملسُ ؟

ويقول أيضا (٣٨٢/٣/١٢) :

٩٩٥ إذا دام للمرء السَّواد ولم تدم غضارته ظَنَّ السَّوادَ خضابا

(٢٨) سبق أن أوردنا هذا البيت تحت ٢ – د – ٣ برقم ٩٠٥ ، ومن ثم فلم نعطه رقما هنا .

٩٩٦ فكيف يظن الشيخُ أن خضابه يُظَنُّ سوادًا أو يخالُ شبابا ؟

ويقول (٣٨٢/٣/١٢) :

٩٩٧ يأيّها الرجل المسوِّدُ شَيْبَهُ كما يُعَدَّ به من الشّبان

٩٩٨ أقْصِرْ فلو سَوَّدْتَ كلَّ حمامةٍ بيضاء ماعُدَّتْ من الغِرْبان

ويقول ابن الرومى أيضا (٣٨٢/٣/١٢) :

٩٩٩ خضبْتَ الشيبَ حين بَدَا لتُدْعَى فتىً حدثاً ضلالاً ماارْتَجَيْتَا !

١٠٠٠ فَدَعْ عنكَ الخضابَ ولاتردْهُ فأجْدى منه قولك لو وَلَيْتا !

الفصل الرابع

الاستسلام للواقع : آيات الكِبَرْ

وإذ تأخذ فى الظهور آيات الكبر – من ضعف فى الجسم ، وانحناء فى الظهر ، وارتعاش فى الأطراف – يفقد الشاعر حجته فى الدفاع عن المشيب ، فيستسلم للأمر الواقع ، ويجاهر بتلك التغيرات التى تأخذ طريقها إلى جسمه وإلى نفسه على السواء ، ويجأر بالشكوى منها جميعاً .

ويبدأ الشاعر بالتأكيد على أن مايصيبه من هرم إن هو إلا سنة الحياة ، وطول العمر الذى يبلى كل جديد ، فنسمع **ساعدة بن جؤية** الشاعر الهذلى يقول فى مطلع قصيدة له تبلغ ستة وأربعين بيتاً (١٩١/٥٠) ، مع ملاحظة أن البيت ورد فى ٢٨٦/١٩ مختلفاً قليلاً :

١٠٠١ ياليت شعرى ألا منجى من الهرم أم هل على العيش بعد الشيب من نَدَمِ ؟

ويقول **جرير** (٣١/١/٢) :

١٠٠٢ أرىَ مَرَّ السنين أخذن منى كما أخذ السِّرار من الهلالِ

ويقول **عبد الملك بن مروان** (٤٧٤/٨) :

١٠٠٣ وكُلُّ جديد يا أمَيْمُ إلى بِلىً وكلُّ امرئٍ يوماً يصير إلى كانا

ويقول **الشاعر** (٤٢٩/٨) :

١٠٠٤ فلئن عُمِّرتُ لقد عُمِّرت كأننى غصن تثنيه الرياح رطيبُ
١٠٠٥ وكذاك حقا من يعمّر يُبله كرّ الزمان عليه والتقليب
١٠٠٦ حتى يعود من البلى وكأنه فى الكفّ أفوق ناصل معصوب
١٠٠٧ مرط القذاذ فليس فيه مصنع لا الريش ينفعه ولا التعقيب

ويرد **محمد بن فطيس** على من يعيب الكبر ردًّا رادعاً فيقول (٨٠٩/٩/٤) :

١٠٠٨ ثكلتك أمك هل سمعت مخلّداً أم هل رأيت مُصحَّحاً لم يَسْقَم ؟
١٠٠٩ أم هل رأيت من البرية ناشئاً نال الذى فى مدَّة لم يَهْرَمِ ؟

ويتحدث الشعراء عن آثار الكبر الظاهرة للعيان : كضعف الجسم وانحناء الظهر وارتعاش الأطراف ، كقول **الأغلب العجلىّ** وهو ممن عمر طويلاً ، مشيراً فى البيت الأول بكلمة « النقض » إلى البعير أعياه السير وأهزله ، وهى مشية الرجل الهرم (١٦٩/٤/٣) :

١٠١٠ أصبحت لايحمل بعضى بعضى منفّها أروح مثل النقْضِ
١٠١١ مرَّ الليالى أسرعت فى نَقْضى طوين طولى وطوين عرضى
١٠١٢ ثم التحين عن عظامى نحضى أقعدننى من بعد طول نهضى

ويُروى أن **معاوية** رأى هزاله وهو متعرّ فقال فى أبيات مشابهة (٥٨٦/٨) :

١٠١٣ أرى الليالى أسرعت فى نقضى أخذن بعضى وتركن بعضى
١٠١٤ حَنَيْنَ طولى وتركن عرضى أقعدننى من بعد طول النهض

ويقول **حبيب بن أحمد** الشاعر وكان قد بلغ سِناً عالية (٨١٥/٩/٤) :

١٠١٥ الحمـد لله على ما قضى فكل ما يقضيه فيه الرِّضا
١٠١٦ قد كنتُ ذا أَيْدٍ وذا قوةٍ فاليوم لا أستطيع أن أنهضا

ويقول **جندل** (٤٢٨/١١٢/٢١) :

١٠١٧ بل إن تَرَىْ شَمَطاً تفرّع لِمَّتى وحنى قناتى وارتقى فى مِسْحَلى

ويقول **الشاعر** (١٦٨٩/٤/١١) :

١٠١٨ حنى أعظمى مرُّ الزمان الذى مضى وبدّلت من رأسى ثلاثة أرؤس
١٠١٩ حفافين مثل القُذَّتين وهامة يزلّ الذباب الثقف عنها فيفرس

ويروى لنا صاحب خزانة الأدب أن أبا حاتم السجستانى روى فى كتاب المعمرين ، بسنده إلى الشعبى قال : أرسل إلىّ عبد الملك بن مروان وهو شاكٍ ، فدخلت عليه فقلت : كيف أصبحت ياأمير المؤمنين ، فقال : أصبحت كما قال **ابن قُيئة** الشاعر (٢١٧/٢) :

١٠٢٠ كأنى وقد جاوزتُ تسعين حِجةً خلعتُ بها عنى عذار لجام[٢٩]
١٠٢١ رمتنى بناتُ الدهر من حيث لاأرى فكيف بمن يُرْمَى وليس يرام ؟

---

(٢٩) ورد فى العقد الفريد (٢ /٣٥٩) أن الأبيات لزهير ، وقد جاء فى البيت الأول لفظ « سبعين » بدلا من « تسعين » وفى البيت الأخير لفظ « تارة » بدلا من « مرة » كما جاء صدر البيت الثالث هكذا : فلو أننى أُرْمَى بنبل رأيتها . .

١٠٢٢ فلو أنها نبلٌ ، إذن لاتقيتُها ولكنني أرمى بغير سهام !
١٠٢٣ إذا مارآنى الناس قالوا : ألم تكنْ جليداً شديدَ البطش غير كهام ؟
١٠٢٤ فَنِيتُ ولم يفن من الدهر ليلةٌ ولم يغن ما أفنيت سلك نظام
١٠٢٥ على الراحتين مرة ، وعلى العصا أنوءُ ثلاثاً بعدهنّ قيامى

ويقول **إيليا أبو ماضى** من مطولته الشعرية «الحكاية الأزلية» يصف رجلاً هرماً (٢٨٢/٤٨) :

١٠٢٦ كـأنمـا زلـزلـة تحته مما به من رعشةٍ واضطرابْ

ويرى الشعراء أن الكبر يجعل الفارس المغوار من العجز والضعف بحيث لايعدّ صالحاً لخوض غمار الحروب . ويعبر **أبو العلاء** عن هذا المعنى فى درعيتين له هما الدرعية الأولى والدرعية السابعة : فى الدرعية الأولى يقول على لسان رجل ترك لبس الدروع لكبره (١٧٠٧/٤/١١ - ١٧١١ ، الأبيات ١ - ٧) :

١٠٢٧ رأتنى بـالمطيرة لارأتنى قريباً والمُخيلةُ قد نأتْنى
١٠٢٨ وأخلقتُ الشبابَ وكان بردى وفارقتُ الحُسامَ وكان حَيْنى
١٠٢٩ كأنى لم أردَّ الخيلَ تَرْدِى إذا استسقيتها علقاً سَقَتْنى
١٠٣٠ ألاقى الدَّارعينَ بغير درعٍ وأدعو بالمُدَجَّج لاتفُتْنى
١٠٣١ كأنَّ جيادَهم أسرابُ وَحْشٍ أصَرَّعُهُنَّ مِنْ رُبْدٍ وَأُتْنِ
١٠٣٢ وما أعجلتُ عن زردٍ حِذاراً ولكنَّ المَفَاضَةَ أثقلَتنى
١٠٣٣ أكَلَّتْ منكبى سُمُرُ العوالى وَحَمْلُ السَّابِرِىِّ أكَلَّ مَتْنى

وفى مطلع الدرعية السابعة يقول على لسان رجل أسنّ وضَعُفَ عن لبس الدرع ، معبّراً عما ينتاب مثل هذا الرجل من مخاوف (١٨١٢/٤/١١) :

١٠٣٤ أرانى وضعتُ السَّرْد عنى وعزَّنى جوادى ولم يَنْهَضْ إلى الغزو أمثالى
١٠٣٥ وقيّدنى العَوْدُ البطىء وقيل لى وراءك إن الذئب منكَ على بالِ !

ومعنى هذين البيتين من قول **الربيع بن ضبع الفزارىّ** وهو من المعمرين (١٨١٣/٤/١١) :

١٠٣٦ أصبح منّى الشبابُ قد حَسَرا إن كان ولى فقد ثوى عُمرا
١٠٣٧ أصبحتُ لا أحمل السلاحَ ولا أمْـ ـلِكُ رأس البعير إن نفَرا

١٠٣٨ والذئبُ أخشاهُ إن مررتُ بِهِ وَحْدِى وأخشى الرياحَ والمطرا !

ومادام الكبر يؤدى بالجسم إلى هذه الحالة من الضعف فحرى بالمرء أن يتعقل ويستمع إلى تحذير **ابن مكى الصقلى** إذ يقول (١٢٣/٢٦) :

١٠٣٩ أيرومُ من نزل المشيبُ برأسه ما قد تعودَ قبله مِنْ فِعْلِهِ؟

١٠٤٠ من لم يميز نقصه فى جسمه فى الأربعين فإنه فى عقله

ونجد **الجاحظ** يواجه هذا الواقع المرير ؛ إذ قال حين زاره المبرّد فى بؤس مرضه ، وسأله عن حاله (٢٤/٢٠) :

١٠٤١ أترجو أن تكون وأنت شيخٌ كما قد كنت أيام الشبابِ؟

١٠٤٢ لقد كذبتك نفسك ليس ثوبٌ دريسٌ كالجديد من الثياب !

وليس أدل على هذه الحقيقة من أن الكبر يكون ذريعة للاعتذار عن أداء عمل يتطلب القيام به شباباً لايزال فى ميعة الصبا . وفى هذا المعنى نجد هذه الأبيات التى أرسلها **الحسين بن الضحاك** للمتوكل يعتذر عن عدم منادمته لكبر سنه (٤٧٤/٢/٦ ، ٢٢٥/٧/٥ - ٢٢٦) :

١٠٤٣ أما فى الثمانين وفَّيْتُها عَذيرٌ وإن أنا لم أعتذرْ

١٠٤٤ فكيف وقد جُزتها صاعِداً مع الصاعدين بتسع أُخَرْ

١٠٤٥ وقد رفع اللهُ أقلامه عن ابن ثمانين دون البشر

١٠٤٦ سِوى من أصَرَّ على فتنةٍ وألْحد فى دينه أو كَفَرْ

١٠٤٧ وإنى لمن أسراء الإلـ ـه فى الأرض نُصب صروفِ القَدَرْ

١٠٤٨ فإن يَقْضِ لى عملاً صالحاً أثابَ وإن يَقْضِ شرًّا غَفَرْ

١٠٤٩ فلا تلح فى كبر هَدَّنى فلا ذنب لى أن بلغتُ الكِبَرْ

١٠٥٠ فقد بسط الله لى عُذره فمن ذا يلومُ إذا ماعَذَرْ؟

وإن الكبر ليترك أثره فى مشية المرء ، فتقصر خطاه وتتعثر . ونجد للشعراء وصفاً لتلك المشية فى أكثر من موضع فقد سبق أن روينا فى وصف المشية البيت رقم ١٠١٠ وقال **أعرابى** (٣٥٨/٢/١) :

١٠٥١ أشكو إليك وجعاً بركبتى وهَدَجَاناً لم يكن فى مشيتى

١٠٥٢ كهدجان الرِّألِ خلف الهَيْقةِ

ويقول **عدىّ بن زيد** (٣٥٦/٣/٥) :

١٠٥٣ حتتى حانياتُ الدهر حتى كأنّنى خاتِلٌ يدنو لِصَيْدِ
١٠٥٤ قريبُ الخطو يحسب مَنْ يرانى ولستُ مقيداً أنى بِقَيْدِ !

ومن ثم فإن الكبر يجعل السير مسافات طويلة أمراً شاقا ، وها نحن أولاء نسمع **عبد المحسن الصورى** يرد على أبيات بعث بها إليه الشاعر أحمد بن سليمان الفجرى يدعوه لزيارته وعبور البحر أو قطع الفيافى ، فيقول (٤٨٩/٦/٤) :

١٠٥٥ جزَاكَ الله عن ذا النُّصْح خيراً ولكنْ جاء فى الزمنِ الأخيرِ
١٠٥٦ وقد حَدَّتْ لى السبعون حداً تهى عما أمرتَ من المسير

ويؤدى الكبر بالمرء إلى أن يتوكأ فى سيره على العصا من ضعف ووهن ، وبذلك يكون موضع شماتة أعدائه ؛ كما يسأمه أهله . ويعبر **عروة بن الورد** عن ذلك بقوله (٨٢/٣/٥) :

١٠٥٧ أليس ورائى أن أدبّ على العصا فيشمت أعدائى ويسأمُنى أهلى[٣٠]
١٠٥٨ رهينة قعر البيت كل عشيةٍ يطيف بِىَ الولدانُ أهْدَجَ كالرِّألِ !

ونجد فى عجز البيت الثانى وصفا للمشية وهو الهدجان الذى جاء ذكره فى البيت رقم ١٠٥٢ . ونجد أن الشاعر هنا يشبه نفسه بالرأل ، وهو ولد النعام أو حوليه ، لأن مشيه يكون ارتعاشاً .

وجدير بالذكر أن لزوم العصا قد جاء فى الشعر كآية من آيات العجز نتيجة الكبر ، والرجل يتمنى إذا لم تكن له قوة ، وهو يجد مسّ العجز ، فيقول : لو كان فى العصا سير ! وإذا لم يجعل المسافر فى عصاه سيراً سقطت من يده إذا نعس ، والشيخ يتوكأ على العصا فتعاونه على السير وتكون له دعامة . ونروى هنا بيتين **لحرثان ذى الإصبع** ، إذ يقول لأمامة وقد رأته نهض فسقط وتوكأ على عصاً فبكت (٣٨٢/٢/٦) :

١٠٥٩ جزعت أمامة أن مشيت على العصا وتذكّرتْ إذ نحنُ مِ الفتيان

إلى أن يقول :

١٠٦٠ لاتَعْجَبَنْ أُمَامُ إنْ حَدَثٌ عَرَا فالدهرُ غيّرنا مع الأَزْمَانِ

---

(٣٠) وردت فى البيان والتبيين/٤٢٩ لفظة « فيأمن » بدلا من « فيشمت » .

ومع الكبر وضعف الجسم وانحناء الظهر ، ولزوم العصا ، تفد الأمراض والعلل ، فيقول **جرير** (٣٥٨/٢/١) :

١٠٦١ تحيا العظامُ الراجفات من البِلى ماإن لداء الركبتين دواءُ

ويقول **الشاعر** (٣٥٨/٢/١) :

١٠٦٢ وللكبير دآيات أَرْبَعُ الركبتان والنَّسا والأَخْدَعُ

وقال **أبو ضبة** فى رجله (٤٢٦/٨) :

١٠٦٣ وقد جعلتُ إذا ماغمتُ أَوجَعَنى ظهرى وقُمتُ قيامَ الشارف الظهرى

١٠٦٤ وكنتُ أمشى على رجلين معتدِلاً فصرتُ أمشى على رِجلٍ من الشَّجر

وقال **رجل من بنى عجل** (٤٢٦/٨) :

١٠٦٥ وشى بى واشٍ عند ليلى سفاهةً فقالت له ليلى مقالة ذى عقلِ

١٠٦٦ وخبّرها أنى عرجتُ فلم تكن كورهاء تجتر الملامة للبعل

١٠٦٧ ومابى من عيب الفتى غير أننى جعلتُ العصا رِجلاً أقيمُ بها رِجْلى

وفى هذا المعنى يقول **أعرابى** من بنى تميم (٤٢٦/٨) :

١٠٦٨ ومابى من عيب الفتى غير أننى ألفت قناتى حين أوجعنى ظهرى

ويقول السيد **عبد الرحيم العباسى** (٤٥/٢/١٤) :

١٠٦٩ أرعشنى الدهر أىَّ رَعْشِ وكنتُ ذو قوةٍ وبَطْشِ

١٠٧٠ قد كنتُ أمشى ولستُ أعْيا فصرتُ أعْيا ولستُ أمشى !

ومع الكبر يضعف السمع والبصر : أما عن ضعف السمع فيقول **عوف بن محلم** لعبد الله بن طاهر يشكو ضعف سمعه من الكبر (٤٥/٢/١٤) :

١٠٧١ إن الثمانين - وبُلِّغْتَها - قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

ويقول **الغزىّ** (١٢٧/٧/٤٥) :

١٠٧٢ طولُ حياةٍ مالها طائِلُ نَغَّصَ عندى كُلَّ مايُشْتهى

١٠٧٣ أصبحتُ مثل الطفل فى ضعفهِ تشابَهَ المبدأ والمنتهى

١٠٧٤ فلا تَلُمْ سمعى إذا خاننى «إن الثمانين وبلّغتها»

ويلاحظ أن المراد من التضمين هنا تمام البيت « قد أحوجت سمعى إلى ترجمان » وإنما تركه لأن أول البيت يدل على اشتهاره ، وهو البيت الذى أوردناه أعلاه تحت رقم ١٠٧١

وأما عن ضعف البصر فقد قال **بعض المحدثين** (٣٦١/٢/١) :

١٠٧٥ يخيّفُنى عضواً فعضوًا فلم يَدَعْ صحيحاً سوى اسمى وَحْدَهُ ولسانى
١٠٧٦ ولو كانت الأسماءُ يدخُلها البلى إذَنْ بلىَ اسمى لامتداد زمانى
١٠٧٧ ومالى لا أبْلى لسبعين حجةً وسَبْع أتَتْ من دونها سنتانِ
١٠٧٨ إذا عَنَّ لى شىء تخيّلَ دونَهُ شبيهُ ضبابٍ أو شبيهُ دُخانِ

ويقول **حميد بن ثور الهلالى** (٣٦١/٢/١) :

١٠٧٩ أرى بصرى قد رابنى بعد صحةٍ وحسبُك داءً أن تصحَّ وتسلما

وقد يضعف السمع والبصر معاً ، كقول **ابن أبى فنن** يصف الكبر (٣٦٠/٢/١) :

١٠٨٠ من عاش أخلقتِ الأيام جِدَّته وخانه ثِقتاهُ : السمع والبصرُ

ومن أحسن ماقيل فى وصف مايفعله المشيب والكبر بالمرء من ضعف فى الجسم كله ، وضعف فى السمع والبصر ، قول **محمود سامى البارودى** (١٥/٣١) :

١٠٨١ أخلق الشيبُ جِدَّتى وكسانى خِلْعَةً مِنه رَثَّةَ الجلبابِ
١٠٨٢ ولوى شَعَر حاجبَىَّ على عَيْـ ـنَىَّ حتى أَطَلَّ كالهدّاب
١٠٨٣ لا أرى الشىء حين يَسْنَحُ إلاّ كخيال كأننى فى ضباب
١٠٨٤ وإذا مادُعيت صِرتُ كأنى أسمعُ الصوتَ من وراء حجابِ
١٠٨٥ كلما رُمْتُ نهضةً أقعدتنى نيـةٌ لاتقلّها أعصابى

ولهذا كله اعتبر الكبر عيباً ، كما اعتبر المشيب عيباً ، فيقول **الشاعر** (٣٠٩/١/٥٥) :

١٠٨٦ خُبِّرتُ زوّارَها قالوا وماعلموا عيبٌ وشيبٌ وشيخٌ ماله نَعَمُ

ولهذا كله أيضا كان الكبر فى بعض الأحيان معيرة يُعيِّرُهُ المرءُ ، كقول **أسماء** (٤٧٤/٨) :

١٠٨٧ عيّرتنى خلقاً أبليت جدَّته وهل رأيت جديداً لم يَعُدْ خلقا ؟

وقول **الأخطل** لنابغة بنى جعدة يعيّره الكبَر ، وإنما هو شاب حديث السن (٢٧٨/١/١٤) :

١٠٨٨ لقد جازى أبو ليلى بقَحم ومُنتكثٍ عن التقريبِ وانِ
١٠٨٩ إذا هبط الخبار كبا لِفيه وخَرَّ على الجحافل والحِرانِ

وينفى **النابغة الجعدى** تهمة الكبر عن نفسه فيقول (٢٣٣/٢٩) :

١٠٩٠ ألا زعمت بنو سعدٍ بأنى —ألا كذبوا— كبير السِّنِّ فان !

ومما يصاحب الكبر الملل والسأم من طول العمر ومدّ الزمان ، وفى هذا يقول **أبو العلاء المعرى** (١٧٠٢/٤/١١ - ١٧٠٣) :

١٠٩١ مُدَّ الزمانُ وأشْوتنى حوادثُهُ حتى مللتُ وذَمَّتْ نفسىَ العُمُراَ
١٠٩٢ وحُلْتُ كُلِّى سوى شيبٍ تجاوزنى ولم يُبيِّض على طول المدى الشَّعَرا

ويقول **أبو العلاء** أيضاً فى مطلع قصيدة يجيب فيها شاعراً مدحه يعرف بأبى الخطاب الجبلىّ (٧١٥/٢/١١- ٧١٦) :

١٠٩٣ أشفقتُ من عبء البقاء وعابه ومللتُ مِنْ أَرْىِ الزمانِ وصابِهِ
١٠٩٤ ووجدتُ أحداث الليالى أولَعتْ بأخى النَّدَى تثنيه عن آرابِهِ

ومثل هذا قول زهير (٧١٦/٢/١١) :

١٠٩٥ سئمتُ تكاليفَ الحياة ومن يَعِشْ ثمانين حَوْلاً لا أبالَكَ يَسْأَمِ

غير أن الملل قد لايكون ملالاً من الحياة ، وإنما يكون ملالاً من الضعف الذى يأتى به الكبر : كقول **أبى الطيب المتنبى** (٣٣٩/٤/٤) :

١٠٩٦ وإذا الشيخُ قال أُفٌّ فاملَّ م حياةً وإنما الضعفَ مَلاَّ
١٠٩٧ آلة العيش صحة وشباب فإذا وَلَّيا عن المرء ولَّى

وعن الملل من الحياة ومما حَلَّ من آيات الكبر يحدثنا الشاعر السعودى المعاصر **محمد حسن الفقى** . (٨/٤٢١٥/٥٣) من قصيدة له من أربعة وثلاثين بيتاً بعنوان «رفيقة اللهو» فيقول :

١٠٩٨ أرفيقتى فى اللهو قد جزعت نفسى ورنَّق صفوها الملَلُ
١٠٩٩ ماعدت مفتوناً بمن قدموا أو عدتُ مشتاقاً لمن رحلوا
١١٠٠ إن كان عندك للهوى أملٌ يهفو فما عندى له أملُ !
١١٠١ ذهب الشباب فما يخالجنى بَعْد الشباب هوى ولاعَذَلُ

١١٠٢ ماذا يرجّى من كهولتِه ومن الهوى والحُسْنِ . . مكتهلُ ؟
١١٠٣ أيكون لى بشبيبتى خطلٌ ويكون لى بكهولتى خطل ؟
١١٠٤ ولئن صبوتُ لسوف يعصمنى عجزٌ ، وسوف يصدّنى كسل

ويقول :

١١٠٥ أرفيقتى فى اللهو معذرةً منى إليك فإننى طَلَلُ
١١٠٦ قد كدتُ أذهب فى الورى مثلاً لو كان ينفع عندهم مَثَل !

ويقول :

١١٠٧ فتجنّبى سُبُلى فَرُبَّمَا ضاقت علىَّ بمفردى السُّبُلُ

ومن مساوى الكبر أنه يذهب بالمسرة وطيب العيش : كقول **الشاعر** (٣٥٨/٢/١) :

١١٠٨ إذا عاش الفتى سبعين عاماً فقد ذهب المَسَرَّةُ والغَنَاءُ

وقول **ربيع بن ضبع الفزارى** فى هذا المعنى (٣٣٢/١/٥٥) :

١١٠٩ إذا عاش الفتى المائتين عاماً فقد ذَهَبَ اللَّذاذَةُ والفتاءُ

وقول **أبى العتاهية** (٢١٤/٢٩) :

١١١٠ أيا من يُؤمِّلُ طولَ الحياة وطولُ الحياةِ عليه خَطَرْ
١١١١ إذا ماكبرتَ وبانَ الشبابُ فلا خير فى العيش بعد الكِبَرْ

وإن هذه المعاناة التى تصحب الكبر لتدفع بالشاعر إلى تمنى الموت ، فنسمع **زهير بن خباب** أحد المعمرين الذى يقال : إنه عمّر مائة وخمسين سنة – يذم الكبر وطول الحياة فيقول (١٢٨/٣/٥) :

١١١٢ الموت خيرٌ للفتى فَلْيَهْلِكَنْ وبِهِ بقيَّهْ
١١١٣ مِنْ أن يُرى الشيخ البجا لَ إذا تهادى بالعشيَّهْ

ويرى الشعراء أن من مساوى الكبر تعذر التعليم أو التأديب فيه ، فيقول **المخبل السعدى** (٢٦٠/٢/١ ، ١٩٧/٣/٣) ، ويقال إن البيت لغيره :

١١١٤ إذا المرء أعيتْهُ المروءة ناشئاً فمطلبُها كهْلاً عليه عسيرُ

وهم يرون رأى الحكماء حين يقولون : ماأشد خطام الكبير ، وأعسر رياضة الهَرِم ! فيقول **صالح ابن عبد القدوس** (٢٦٠/٢/١ ، ٢٥٣/١٣) :

١١١٥ وإن من أدّبته فى الصبا كالعود يُسقى الماء فى غَرْسِهِ
١١١٦ حتى تراهُ مورِقاً ناضِراً بَعْدَ الذى أبصرت من يُبْسِه
١١١٧ والشيخ لايتركُ أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رَمْسه
١١١٨ إذا ارعوى عاد له جهله كذى الضنى عاد إلى نُكْسه[٣١]
١١١٩ ماتبلغ الأعداء من جاهلٍ مايبلغ الجاهل من نفسه !

وقال **ابن دريد** (١٠٤/٣) :

١١٢٠ والشيخ إن قوّمته من زيغهِ لم يُقمِ التثقيفُ فيه ماالتوى !

وقالت **إحدى نساء العرب** تشكو ابنها (٢٠٣/٢٩) :

١١٢١ أنشا يمزق أثوابى يؤدبنى أبَعْدَ شيبى يبغى عِندى الأدبا !

وقال **الشاعر** (٢٠٦/٤١) :

١١٢٢ قد ينفع الأدب الأحداثَ فى صغرٍ وليس ينفع عند الشيبة الأدبُ

وإذا كان المشيب يرتبط فى وجدان الشاعر والموتُ ، (انظر ٢ – ب – ٤) فإن الكبر يدنيه منه ، فيقول **الغزالى** (٣٦١/٢/١) :

١١٢٣ أصبحت والله محموداً على أمَدٍ من الحياة قصير غير مُمْتَدِّ
١١٢٤ حتى بقيتُ بحمد الله فى خلفٍ كأننى بينهم من وَحْشةٍ وَحْدِى
١١٢٥ وما أفارق يوما من أفارقُهُ إلاّ حسبتُ فراق آخر العهدِ

ويقول **أبو العتاهية** (٤١/ ١٠٨) :

١١٢٦ ابن ذى الابن كلما زاد منه مشرع زاد فى فناء أبيه
١١٢٧ ما بقاء الأب الملح عليه بديبب البلى شباب بنيه

وفى معناه ماحكى عن **زرّ بن حبيش** أنه قال وقد حضرته الوفاة وكان قد عاش مائة وعشرين سنة (١٠٨/٤١) :

---

(٣١) جاء فى الوسيط /٢٥٣ « عاد إلى جهله » .

١١٢٨ إذا الرجال ولدت أولادها وارتعشت من كبر أجسادها
١١٢٩ وجعلت أسقامها تعتادها تلك زروع قد دنا حصادها !

ونجد مزاوجة بين الموت والهرم فى قول **الشاعر** (١٥٦/١/٢) :

١١٣٠ لاطيب للعيش مادامت منغصةً لذّاته بادِّكارِ الموت والهرم

وفى قول **التيمى** (٤٨٣/٨) :

١١٣١ إذا كانت السبعون سنك لم يكن لدائك إلا أن تموت طبيبُ
١١٣٢ وإن امرأً قد سار سبعين حِجةً إلى منهل من ورده لقريب
١١٣٣ إذا مامضى القرنُ الذى كنت فيهمُ وخلفت فى قرن فأنت غريبُ

وفى قول **أبى عمران موسى بن عمران المارتلى** (١٣٧/٥٦) :

١١٣٤ أمن بعد سبعين أرجو البقاء وسبع أتت بعدها تعجل

وثمة أبيات تجمع بين هذا كله مما يصيب الشعر والجسم ، وقصور الخطو وانحناء الظهر ، ثم توقع الموت فى النهاية ؛ إذ يقول **الشاعر** (٣٦١/٢/١ – ٣٦٢) :

١١٣٥ يا من لشيخ قد تخدَّد لحمه أفنى ثلاث عمائمٍ ألوانا
١١٣٦ سوداء حالكة وبُرْدُ مَفوفٍ وأجَدَّ لوناً بعد ذاك هجانا
١١٣٧ قصر الليالى خطوه فتدانى وحَنَيْنَ قائم صُلبه فتحانى
١١٣٨ صحب الزمان على اختلاف فنونِهِ فأراه منه شدة وليانا
١١٣٩ والموتُ يأتى بعد ذلك كلّهِ وكأنما يعنى بذاك سوانا

ويلاحظ أنه قد وردت فى عيون الأخبار (٣٢٥/٢) أبيات مشابهة وإن اختلفت فى بعض ألفاظها وفى ترتيبها .

والكبر إما أن يؤدى بالمرء إلى الارعواء ، أو إلى الضلال ، وليس كضلال الكهولة ضلال يقول **حافظ جميل** الشاعر العراق ، يصف عهد الكهولة بأنه مأتم (٨١/٣١) :

١١٤٠ خِلْتُ الشبابَ طريق كل ضَلالةٍ عمياء تُنْذِرُ بالمصير المظلم
١١٤١ حتى إذا استخلفتُه بمضَللٍ أقوى على التضليل منه وَأعظم
١١٤٢ باركتُ شيطانَ الصِّبا وتَرَحَّمَتْ نفسى على مترفقٍ مُترحِّم
١١٤٣ فكأننى واريتُ عهدَ شبيبتى ليظَلَّ عهد كهولتى فى مأتم

بيد أن من الشعراء من يدافع عن الكبر ويقرنه بالحكمة وعدم الوقوع فريسة للخديعة كقول **سحيم ابن وثيل الرياحى** من قصيدة مشهورة له (١٠/٣/٣٣٢) :

١١٤٤ وماذا يدَّرى الشعراء منى ... وقد جاوزتُ حَدَّ الأربعين ؟[٣٢]

وهؤلاء يرون أن الضعف والكبر لايحولان بين المرء وبين الطموح والآمال العراض ؛ فالشباب شباب القلب ، وفى داخل كل رجل كبير قلب شاب ، ومن ثم نسمع **البهاء زهير** يقول وقد تقدمت به السن (١٦/٢/٨٧) :

١١٤٥ قالوا كبرت عن الصِّبا ... وقطعتَ تلك الناحيهْ

١١٤٦ فدع الصبا لرجاله ... واخلع ثياب العاريهْ

١١٤٧ ونَعَمْ كبرتُ وإنما ... تلك الشمائلُ باقيهْ

١١٤٨ وتفوح من عطفىَّ أنـ ... ـفاسُ الشباب كماهيهْ

١١٤٩ ويميلُ بى نحو الصِّبا ... قلب رقيقُ الحاشيَه

١١٥٠ فيه من الطرب القديـ ... ـم بقيةٌ فى الزاويهْ

ويقول **الشاعر** (١/٢/٣٢٠) :

١١٥١ ياهِنْدُ هل لكِ فى شيخٍ فتًى أبداً ؟ ... وقد يكون شباب غير فتيانِ[٣٣]

ويقول آخر (١/٢/٣٢٠) :

١١٥٢ وفتىً وَهْوَ قد أناف على الخمـ ... ـسين يلقاكَ فى ثيابِ غُلامِ !

ويقول **أبو الطيب** فى هذا المعنى أيضا (١١/٤/١٥٩٢) :

١١٥٣ وشيخ فى الشباب وليس شيخاً ... يُسمَّى كُلُّ من بَلَغَ المشيبا

ويقول **العقاد** (٢٥/١٠٤) :

١١٥٤ قل لابن تسعين لاتحزن فذا رجلٌ ... دون الثلاثين قد سَاوَاكَ فى الهرم !

وإن هذا التناقض بين التقدم فى السن ومايصحبه من آيات الكبر ، وبين ما يجيش به القلب الشابّ من طموح وآمال ليُحدث صراعاً فى نفس الشاعر ، فنراه فى حيرة وتعجب من هذا

---

(٣٢) ورد فى مجالس ثعلب ١ /٢١٣ لفظ « يبتغى » بدلا من « يدّرى » ولفظ « رأس » بدلا من « حدّ » .

(٣٣) ورد هذا البيت فى شروح سقط الزند ٤ /١٥٩١ مبتدئا بكلمة « ياعز » بدلا من « ياهند » .

التناقض فى حياته ؛ وهو مايعبر عنه الشاعر السعودى المعاصر **على زين العابدين** فى قصيدة طويلة تبلغ ثلاثة وأربعين بيتاً بعنوان «طموح وتطامن» يقول فيها (٥/٤٢٨٥/٥٤ ، الأبيات ٣ – ١٣) :

١١٥٥ ولكنى هرمتُ ولآنَ عظمى ... فهل فى الطوق تحطيمُ الصِّعابِ ؟
١١٥٦ أرى للنفسِ آمالاً عِراضاً ... وللقلب الفتىّ مُنى الشباب
١١٥٧ وللعزم القوىّ شواظ نارٍ ... تَوقَّدُ فى اشتعالٍ والتهابِ
١١٥٨ كأنى لم أكن إلا فتيًّا ... يموج فؤادُه مَوْجَ العباب
١١٥٩ فياهذا التناقضُ فى حياتى ! ... شباب القلب مرضوض الإهاب
١١٦٠ رأيت العمر لم يعُجزْ فؤادى ... ولم يُخْمِدْ طموحى عن طِلابى
١١٦١ ترى ما السرُّ فى أعماق نفسى ؟ ... وهل مازلتُ أرفُل فى شبابى
١١٦٢ أو الآمالُ فى الدنيا تمادَتْ ... فشدَّتْنى لأوهامٍ كِذاب ؟
١١٦٣ أرانى غير معترفٍ بضعفى ... ولستُ بهائبٍ لُجَجَ العُباب
١١٦٤ كأنى لم أُجُزْ خمسين عاماً ... وأنى فى العزيمة كالشِّهابِ
١١٦٥ عجيبٌ مايجيشُ به فؤادى ... من الآمال فى دُنيا التباب !

وعلى النقيض من هذا نسمع **إيليا أبو ماضى** فى مطولته الشعرية «الحكاية الأزلية» يقول على لسان شيخ «مشتعل اللمّة بالى الإهاب» إنه يطلب من خالقه أن يأخذ حكمته ويردّ عليه الشباب ، فهو يريد المُنى أمامه لاوراءه (٢٨٢/٤٨) :

١١٦٦ مُرْ تقف الأيام عن سيرها ... فإنها تركض مثل السَّحابْ
١١٦٧ وضع أمامى لاورائى المنى ... وطوِّل الدرب وزِدْ فى الصِّعابْ
١١٦٨ مالذّتى بالماء أُرْوَى به ... بل لذتى فى العَدْوِ خَلْفَ السَّراب !

ويتناول الشعراء بالوصف مايعترى المسنّ من تغيرات نفسية ، ومايحدث من تغيرات فى سلوك الناس نحوه ، ونظرتهم إليه ، ومعاملتهم له : فمن حيث التغيرات النفسية يتحدث الشعراء عن لين القناة التى كانت لاتلين ، وعن تخوّف الرجل المسنّ من الناس ، وكثرة حديثه عن الماضى ، وفقدانه الاهتمام بما يدور حوله ، وشعوره بأنه أصبح شخصاً عديم الجدوى :

عن لين قناة المسنّ يقول **الشاعر** (٣٦١/٢/١) :

١١٦٩ كانت قناتى لاتلينُ لغامزٍ فألانها الإصباحُ والإمساءُ !
١١٧٠ ودعوتُ ربِّى بالسلامة جاهدًا ليُصحّنى فإذا السلامة داءُ !

وعن رهبة الناس يقول **طرفة** (٢١/١٠٨/٢٧٩) :

١١٧١ لاكبير دالِفٌ من هَرَمٍ أرهبُ الناس ولاكَلُّ الظُّفُر

وعن كثرة حديث المسنين عن الماضى يقول **لبيد** (١/٢/٣٦٠) :

١١٧٢ أليس ورائى إن تراخت منيّتى لزومُ العصا تحنى عليها الأصابعُ
١١٧٣ أخبِّرُ أخبار القرون التى مضت أَدِبُّ كأنى كلما قمتُ راكعُ
فأصبحتُ مثل السيف أخلق جَفْنُهُ تقادم عهد الجفن والنصْلُ قاطِعُ

وقال **أعرابىّ** فى امرأة (١/٢/٣٥٨) :

١١٧٤ يا بكر حواء مـن الأولادِ وأقدم العالم فى الميـلاد !
١١٧٥ عمُرُكِ ممدودٌ إلى التّنـادِ فحدِّثينا بحديث عـادِ !
١١٧٦ ومبتدا فرعون ذى الأوتـادِ وكيف جاء السيلُ بالأطـوادِ ؟

ويحدثنا **حسان بن الغدير** عما يخالج المسنّ من الشعور بعدم الجدوى ، وبأنه أصبح لايأتى بخبر ولا يحمل خبراً فيقول (٨/٥٠٢ – ٥٠٣) ، ويلاحظ أن لفظ «واصل» جاء فى ص ٢٦٦ بدلا من واسط) :

١١٧٧ قالت أمامة يوم برقة واسطٍ يابن الغدير لقد جعلت تغيَّرُ
١١٧٨ أصبحتَ بعد زمانِك الماضى الذى ذهبت شبيبته وغصنك أخضرُ
١١٧٩ شيخاً دعامتك العصا ومشيّعاً لاتبتغى خبراً ولاتُستَخْبَرُ

ويقول **الشاعر** (٩/٣٢٥ ، ٢٣/٤١٦) :

١١٨٠ فأصبحتُ كُنْتِيًّا وأصبحتُ عاجِنا وشرُّ خِصال المرء كنتُ وعاجِنُ[٣٤]

ويقول **قطرى بن الفجاءة** (٥٧/٣٩) :

١١٨١ ومن لايعتبط يسأم ويهرمْ وتسلمه المنون إلى انقطاع
١١٨٢ وما للمرء خيرٌ فى حياة إذا ماعُدَّ من سَقَطِ المتاعِ !

(٣٤) قال ابن الأعرابى : يقال رجل «كنى» إذا قال : كنت شابا ، كنت شجاعا ، كنت قويا ، أما لفظ «عجن» فيقال «عجن الرجل إذا نهض معتمدا على الأرض من الكبر» .

ويقول **ابن العباس**[٣٥] (٤٥١/٢/٥٥) :

١١٨٣ لاخير فى الشيخ إذا مااجلخَّا وسال غَرْبُ عينه ولخَّا

١١٨٤ وانثنت الرِجْلُ فكانت فخَّا وكان وصلُ الغانيات أخَّا[٣٦]

وأما من حيث فقدان المسنّ الاهتمام بما يجرى حوله فمن أمثلته ترك التعجب من العجب ، فما من شىء أصبح يثير عجبه ، وفى ذلك يقول **حسان بن الغدير** (٥٠٣/٨) :

١١٨٥ وهلك الفتى ألاّ يراح إلى النَّدى وألاّ يرى شيئاً عجيباً فيعجبا

١١٨٦ ومن يبتغى منى الظلامة يلقنى إذا مارآنى أصلع الرأس أشيبا

ويلاحظ أنه قد ورد هذا المعنى فى البيت الثانى من قصيدة الشاعر السعودى المعاصر **محمد حسن الفقى** التى سبق أن روياها فى بداية هذا الفصل تحت رقم ١٠٩٩ وفيه يقول :

ما عدتُ مفتوناً بمن قدموا أوعدتُ مشتاقاً لمن رحلوا

ونجد معنى جديدا فى أبيات **لأحمد شوقى** من مسرحية «كليو باترة» عما يصيب المسنَّ من تغيرات نفسية ، وهذا المعنى يتصل بمشاعر الحسد والغيرة التى يحس بها الشيوخ نحو الشباب ! ففى هذه المسرحية نسمع «زينون» يحدث نفسه قائلاً (١٨١/٢٢) :

١١٨٧ مالى جُنِنتُ فصرتُ أتهمُ م الشبابَ وأضْطهدْ ؟

١١٨٨ لم أَلْقَ رأساً فاحماً إلا حملتُ له الحسدْ !

١١٨٩ ووجدتُ لاعجَ غَيْرةٍ بين الجوانح تتَّقِدْ !

أما من حيث تغير سلوك الناس نحو المسنّ ، وتغيّر معاملتهم له ، وما يبعثه هذا كله فى نفسه من مرارة وألم – فنجد خير مثال له هذه الأبيات **لعبد الله بن عبد الرحمن القاسم الدينورى** (٣١٣/٢/١٥) :

١١٩٠ عشت من الدهر ماكفانى ومَرَّ مامَرَّ من زمانى

١١٩١ وقد حنتنى وقوَّستنى تسعٌ وتسعون واثنتان

١١٩٢ وقد سئمتُ الحياة مما ألقى من الذل والهوان

١١٩٣ ومن أخٍ كنت أرتجيه لحادث الدهر قد قلانى

---

(٣٥) نقل البغدادى نسبة الرجز إلى العجاج وليس فى ديوانه .

(٣٦) «أخ» كفولك أفّ وتفّ .

١١٩٤ ومِنْ غلامٍ إذا يُنادى تصامم النذلُ وهو دانِ
١١٩٥ مدمـــدمٍ لا أراهُ إلاَّ مقطّب الوجــه مـارآنى !

وقد وجدنا أبياتاً للشاعر الهذلى **ساعدة بن جؤية** تتضمن معظم ماأوردناه من آيات الكبر ، ويلاحظ أن مطلع الأبيات سبق أن أوردناه تحت رقم ١٠٠١ ولذلك لم نعطه هنا رقماً . يقول ساعدة (٥٠/١٩١) :

.... ياليت شعرى ألا منجّى من الهرم أم هل على العيش بعد الشيب من نَدَمِ
١١٩٦ والشيب داءٌ نجيسٌ لادواء له للمرء كان صحيحاً صائبَ القُحم
١١٩٧ وَسْنانُ ليس بقاضٍ نومةً أبداً لولا غداة يسير الناسُ لم يقُمِ
١١٩٨ فى منكبيه وفى الأصلاب واهنةٌ وفى مفاصِلِهِ غمزٌ من العَسَمِ
١١٩٩ إن تأته فى نهارِ الصيف لاتره إلاَّ يُجَمِّعُ مايَصْلى من الحُجم
١٢٠٠ حتى يُقالَ وراءَ البيت منتبذا قُم لا أبالَكَ سار الناسُ فاحترم
١٢٠١ فقام تُرعِد كفّاهُ بمحْجنِهِ قد عاد رهْباً رذيًّا طائِشَ القدم[٣٧]
١٢٠٢ تاللهِ يبقى على الأيام ذوحيد أدفى صَلود من الأوعال ذوخَدَمِ

ويحمل **المستوغر بن ربيعة** آيات الكبر فى أبيات قالها حين دخل على معاوية بن أبى سفيان[٣٨] وهو مُسِنٌّ معمر وسأله : كيف نجدك يامستوغر (١/٢/٣٥٧ – ٣٥٨) :

١٢٠٣ سلنى أنبئك بآيات الكبر نوم العشاء وسعالٌ بالسَّحَرْ
١٢٠٤ وقِلَّةُ النوم إذا الليل اعتكر وقلة الطَّعْمِ إذا الزاد حضر
١٢٠٥ وحذراً ازداده إلى حذر والناس يبلون كما يبلى الشَّجرْ

وثمة أبيات تتضمن إشارة إلى آيات الكبر دون ذكر أىٍّ منها ، كقول **النَّمر بن تولب** (٤٩/٢/٣٢١) :

١٢٠٦ يود الفتى طول السلامة والغنى فكيف تُرى طول السلامة يَفعلُ ؟

---

(٣٧) ورد هذا البيت فى شعر الهذليين / ٢٨٦ ، على النحو التالى :

تـراه تـرعـد كـفـاه بمحـجـنـهِ وإن خطا فهو نضوٌ طائش القدم

(٣٨) جاء فى البيان والتبيين /٢٠٧ وكذلك فى عيون الأخبار أنه الهيثم بن الأسود بن العريان وقد دخل على عبد الملك ابن مروان ، كما ورد البيت الأول مبتدئاً بلفظ « اسمع » بدلا من « سلنى » .

وقول **الكميت** (٣٢١/٢/٤٩) :

١٢٠٧ لا تغبط المرء أن يُقالَ لـه امسى فلانٌ لسِنِّه حَكَمـاَ
١٢٠٨ إن سرَّهُ طولُ عمره فلقد أضحى على الوجه طولُ ماسلما

لهذا كله كان طول العمر أمراً مذموماً ، فيقول **محمد بن مناذر** فى رجل من المعمرين (٣٥٨/٢/١ - ٣٥٩) :

١٢٠٩ إنَّ مُعاذَ بن مسلمٍ رَجُلٌ قد ضَجَّ مِنْ طولِ عُمْرِهِ الأَبَدُ
١٢١٠ شاب رأس الزمان واكتهل الدهر م وأثوابُ عُـمْـره جُـدُدُ
١٢١١ يانَسْرَ لقمان كم تعيش وكم تسحبُ ذيل الحياة يالبدُ !
١٢١٢ قد أصبحتْ دار آدمٍ خربت وأنت فيها كأنك الوتدُ
١٢١٣ تسأل غربانها إذا حجلتْ كيف يكونُ الصُداعُ والرَّمَدُ ؟